من بلاغة البيـان النبوي
في التحذير من الدين

إعـــداد

الدكتور

الدسوقي محمد أبو غرارة

الأستاذ المساعد بقسم البلاغة والنقد بكلية
الدراسات الإسلامية والعربية (بنين) بدسوق

ملخص البحث

هذا البحث يتعلق بدراسة جانب من جوانب المعنى في البيان النبوي، وهو أحاديث الدَين، وقد قصدها بالدراسة البلاغية التي تكشف عن خطورة الدَين والتحذير منه والتشديد في عواقبه الوخيمة ومآلاته الخطيرة على الفرد والأمة، وقد حاول الباحث في دراسة تلك الأحاديث الوقوف على المعاني الأم والأفكار الرئيسة لما جاء في بيانه ﷺ في شأن الدين، وجعل من تلك المعاني مقامات، وأدرج تحت كل مقام حديثا يبرز هذا المعنى، محاولًا ذكر الأحاديث الأخرى التي ترتبط بهذا المعنى والاستفادة منها وبيان ما أضفته للمعنى، في محاولة للربط بين الأحاديث المتعددة في المعنى الواحد والموازنة بينها.

Abstract

This research is related to the study of the aspect of meaning in the statement of the Prophet, which is the talk of religion, and intended to study rhetorical, which reveals the seriousness of religion and warning him and the severity of severe consequences and serious consequences on the individual and the nation, the researcher tried to study these conversations to identify the meanings of mother and the main ideas Because of what he said in his statement peace be upon him in the matter of religion, and make those meanings Maqamat, and included under each new place highlights this meaning, trying to mention other conversations that relate to this meaning and benefit from it and what you added to the meaning, in an attempt to link the multiple conversations in the world Ni and one budget them.

بسم الله الرحمن الرحيم

مُقَدِّمَة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على من أوتي جوامع الكلم وزمام البيان، محمد بن عبد الله النبي الأمي، العربي الأمين، وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهديه، وسار على دربه إلى يوم الدين والجزاء .

وبعـــــــد ،،،

فمن الثابت أن السنة النبوية هي المصدر الثاني للتشريع، ولذا كان النهوض بحقها بالدراسة والتحليل، واستكناه أسرارها من أعظم الحقوق على المسلمين، ومن أشرف الواجبات على الدارسين، وبخاصة في حقل الدراسات البلاغية.

وغير خاف أن المعاني المودعة في بيانه (ﷺ) تتسم بالدقة واللطف، وبعد الغور في فهم أسرارها، والوقوف على لطائفها، ولذلك يحتاج الدارس في السنة النبوية إلى فقه وتدبر كل ما يحيط بالنص، فمن هذا التدبر تتشكل صورة الدين، وتتحدد قواعده، وتتأصل أحكامه، ومن هنا عمدت في دراستي هذه لأشرف بالجلوس في رحاب بلاغته (ﷺ) في جانب من جوانب البيان النبوي، لأستنشق من عبير هذا الحقل الذي ما زال بكرا، رغم كثرة الدراسات حوله، وأنهل من هذا النبع الثر الذي بلغ الغاية في جزالة اللفظ وقوته، ورقة الأسلوب وعذوبته، ويسر العرض وسهولته، ولله در الجاحظ– رحمه الله – في وصفه لهذا البيان الراقي بقوله : "وهو الكلام الذى قل عدد حروفه، وكثر عدد معانيه، وجلَّ عن الصنعة، ونُزِّه عن التكلف، ... فلم ينطق إلا عن ميراث حكمةٍ، ولم يتكلم إلا بكلام قد حف بالعصمة، وشيد بالتأييد ويُسِّر بالتوفيق، وجمع بين المهابة والحلاوة ... وهو الكلام الذي ألقى الله عليه المحبة، وغشاه بالقبول وجمع له بين المهابة والحلاوة، وبين حسن الأفهام، وقلة عدد الكلام، مع استغنائه عن إعادته، وقلة حاجة السامع إلى معاودته"(١).

(١) البيان والتبيين، للجاحظ، ت: عبد السلام هارون : ٢/ ١٣ – بتصرف، ط دار ومكتبة الهلال، بيروت، ١٤٢٣ هـ .

وهذا الجانب الذي قصدته الدراسة هو أحاديث الدين فلم أقف – على حد علمي – بتناول أحد من قبل بدراستها من الناحية البلاغية، مع أن المعاني التي أودعها النبي (ﷺ) في تلك الأحاديث تكشف – غالبا – عن خطورة الدين، والتشديد في أمر بيان عواقبه الوخيمة، ومآلاته الخطيرة على الفرد من هم وذل، وضعف الإيمان، وفقدان الضمير، وكثرة الخلافات والمنازعات، مما يودي بسكينة المجتمع وطمأنينته، وبخاصة بعد التوسع في عملية الدين على مستوى الأفراد، أو الدول والشعوب، بل يمتد خطرها وعواقبها في الآخرة ، إذ لابد فيها – إذا لم تقض في الدنيا – من المحاقة والمقاصة؛ لأنها تتعلق بحقوق العباد بل بثمرة تعبهم، ونتيجة كدهم وعرقهم في الحياة، ولذا كان لابد من الإيفاء بها حتى ولو في الآخرة، وكان التعدي عليها بمحاولة التنصل من سدادها في الدنيا من أعظم الجرم الذي لا تهاون فيه عند الله – تعالى –، ومن ثم جعلت عنوان هذه الدارسة:

(من بلاغة البيان النبوي في التحذير من الدين)

ولست قاصدًا بمعنى التحذير هنا أن الدين في أصل حكمه يشوبه شيء من التحريم، فالثابت أن أصله الإباحة، بل إن الإسلام حث على تنفيس المكروبين، وقضاء حوائج المحتاجين، وتيسير المعسرين، وهذا كله من التعاون على البر والتقوى الذي أرشدنا إليه القرآن الكريم، ولكن بعض النفوس قد تستغل هذا المباح، وتكثر من الديون التي غالبا ما تثقل كواهلهم، وترهق نفوسهم، وبخاصة في ظل التوسع في الكماليات وعدم تكيف الناس على حسب الظروف والإمكانيات، وفي نهاية الأمر لا يقومون بالوفاء بسداد تلك الديون إما عن عمد، نتيجة عدم الضمير لدى بعض الناس، وخبث نواياهم، وفساد قلوبهم وطواياهم، أو العجز عن الأداء، فيترتب على ذلك كثرة الخلافات والمنازعات وانتشار الفرقة والكراهية والبغضاء بين أفراد المجتمع، ومن ثم جاءت السنة النبوية لتحذر من الانزلاق نحو أبواب الدين، وبيان عواقبه ومآلاته في الدنيا والآخرة.

وقد واتتني فكرة تلك الدراسة المتواضعة عند مطالعتي لما كتبه أحد الدارسين المجتهدين حول بلاغة (آية المداينة) وقد انتهى في دراسته إلى أن الآية الكريمة تنحو نحو التحذير من الدين من بدئها إلى نهايتها، فيذكر "أن هناك خيطًا يسلك كل لفظة، وجملة، وأسلوب في الآية، هذا الخيط الماضي من أول الآية إلى آخرها هو: التضييق والتشديد، ووضع القيود على هذا النمط من التعامل، فلا تكاد تقف أمام أسلوب أو تركيب، أو حتى لفظة إلا ويبرز ذلك هذا الخيط شاخصا لينفر الناس من هذه الديون، حتى لا تشيع في المجتمع المسلم "[1].

ومن ثَمَّ قلتُ في نفسي ولم لا أُوَلّى وجهي شطر السنة النبوية، وبخاصة أنها المصدر الثاني للتشريع بعد القرآن الكريم، وقد جاءت موضحة ومبينة لما جاء مجملًا فيه، لأرى كيف عالج البيان النبوي تلك القضية، وموقف الرسول (ﷺ) من الديون ونظرته إليها، وهل نحا بها نحو التحذير، والتضييق، والتشديد، كما ذهب الدارس للآية الكريمة؟، وما مظاهر هذا التحذير، ووسائله البلاغية، ومقاماته في البيان النبوي؟

منهجي في تلك الدراسة:

وجدير بالذكر أن هذا البحث لم يقم بالتناول البلاغي لكل ما ورد من أحاديث في بيانه (ﷺ) في شأن الديون، فهذا أمر يضيق به المقام، وبخاصة في ظل تلك البحوث، وما تتطلبه من كلفة مادية في عملية النشر، ومع ذلك حاولت الوقوف على المعاني الأم، والأفكار الرئيسة لما جاء في بيانه (ﷺ) في شأن الدين، وجعلت من تلك المعاني مقامات، وأدرجت تحت كل مقام حديثا يبرز هذا المعنى، مع محاولة ذكر الأحاديث الأخرى التي ترتبط بهذا المعنى، والاستفادة منها وبيان ما أضافته للمعنى، وذلك في ثنايا التحليل البلاغي

(١) البلاغة العالية في آية المداينة، د / سعيد جمعة:١٤١، ط مكتبة الآداب، ط الأولى، ١٤٢٤ هـ – ٢٠٠٣ م.

للحديث الذي جعلته عماد الدراسة، في محاولة للربط بين تلك الأحاديث، والإلمام بأطراف المعاني حولها، والموازنة بينها – أحيانًا – مع محاولة تلمس الفروق والدلالات فيما بينهما، وكيف اقتضاها نظم بيانه (ﷺ).

وقد قمت بدراسة تلك الأحاديث معتمدا المنهج التحليل التكاملي، والذي يعتمد على النظرة الشمولية للنص، واقتفاء أثر النظم، وتتبع كل عنصر فني فيه يكون من شأنه أن يسهم في الكشف عن المعنى وفهم بيانه (ﷺ) ومدى تلاؤم ألفاظه بعضها مع بعض، وتناسق دلالاته، ومجاورة الجمل وأوجه ترابطها وما يتبع ذلك من دقة في استخدام المفردات أو الحروف أو غير ذلك.

كما أشرت إلى الروايات المختلفة، والاستعانة بها في فهم التوجيه البلاغي وتتبع الأحاديث المتعددة للمعنى الواحد في مراحله الزمنية، مع محاولة التوفيق والجمع بينها أحيانا.

وقد اقتضت طبيعة هذا البحث أن يأتي في مقدمة وخمسة مقامات، جمعتها تحت عنوان واحد، وهو: (مقامات التحذير من الدين في البيان النبوي)، وخاتمة، ثم أردفت ذلك بالفهارس الفنية المتنوعة.

١- **أما المقدمة**: فتحدثت فيها – بإيجاز شديد – عن بلاغته (ﷺ)، وفكرة هذه الدراسة، والمنهج الذي سرت عليه في تناولها، وخطة هذا البحث .

٢- (**مقامات التحذير من الدين في البيان النبوي**)، وقد جاءت كالآتي[١]:

(١) جدير بالذكر أن ترتيب هذه المقامات لم يكن عفو الخاطر، وإنما حاولت أن أتلمس قدرا من المناسبة بين كل مقام والذي يليه، فبدأت بالمقام الأول؛ لأن لغة التحذير من خطورة الدين فيه واضحة وصريحة، كما سيتضح عند تحليل الحديث الذي قامت عليه دراسة هذا المقام، ثم ثنيت بالمقام الثاني ؛ لما بينه وبين سابقه من مناسبة بيّنة، وهي أن كليهما مرتبط بالشهيد وفوات ثوابه، ثم أتبعت ذلك بالمقام الثالث؛ لأنه مرتبط بالميت، والتناسب بين الموت والشهادة غير بعيد، ثم أتبعت ذلك بالمقام الرابع؛ لأنه وإن كان يتعلق بالميت المدين كسابقه، إلا أنه متأخر عنه في الورود الزمني – كما سيتضح من خلال دراسته–، ثم أنهيت تلك المقامات بالمقام الخامس؛ وذلك لما له من تأثير في العقيدة والسلوك العام للمسلم، كما أنه يضع أحد الحلول لمشكلة الدين ؛لأنه يتعلق بالتعوذ منه، فكان الأنسب الختام به .

المقام الأول: التشديد في الدين من وحي السماء .

المقام الثاني: الدين لا تكفره الشهادة في سبيل الله مع عظمة ثوابها .

المقام الثالث : امتناعه (ﷺ) عن الصلاة على المدين حتى يُضمن دينه .

المقام الرابع : التحذير من نية عدم السداد للدين، وعاقبة ذلك .

المقام الخامس : تأثير الدين على العقيدة والسلوك العام .

٣- ثم **الخاتمة** : وأوجزت فيها أهم النتائج التي توصل إليها البحث.

٤- ثم أردفت ذلك **بالفهارس الفنية** المتنوعة، واقتصرت على:

أ – فهرس المصادر والمراجع.

ب- فهرس الأحاديث النبوية التي اعتمدت عليها الدراسة في التحليل البلاغي.

ج – فهرس الموضوعات.

وبعد ،،،

فهذا جهد المقل، ولا أدعي لبحثي هذا الكمال، فالكمال لله وحده، وحسبي أني حاولت أن أقتبس من نور بيانه (ﷺ)، وقد بذلت قدر طاقتي في إعداد هذا البحث، فما كان فيه من توفيق فمن الله وحده، وما كان فيه من تقصير فمن نفسي ومن الشيطان.

والله أسأل أن يتقبل هذا العمل، وأن يكون لوجهه خالصًا، إنه سميع قريب مجيب.

المقام الأول

التشديد في الدين من وحي السماء

عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ جَحْشٍ[1]، قَالَ: كُنَّا جُلُوسًا عِنْدَ رَسُولِ اللهِ (ﷺ)، فَرَفَعَ رَأْسَهُ إِلَى السَّمَاءِ، ثُمَّ وَضَعَ رَاحَتَهُ عَلَى جَبْهَتِهِ، ثُمَّ قَالَ: «سُبْحَانَ اللهِ، مَاذَا نُزِّلَ مِنَ التَّشْدِيدِ؟»، فَسَكَتْنَا وَفَزِعْنَا، فَلَمَّا كَانَ مِنَ الْغَدِ سَأَلْتُهُ، يَا رَسُولَ اللهِ، مَا هَذَا التَّشْدِيدُ الَّذِي نُزِّلَ؟ فَقَالَ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَوْ أَنَّ رَجُلًا قُتِلَ فِي سَبِيلِ اللهِ، ثُمَّ أُحْيِيَ، ثُمَّ قُتِلَ، ثُمَّ أُحْيِيَ، ثُمَّ قُتِلَ وَعَلَيْهِ دِينٌ مَا دَخَلَ الْجَنَّةَ حَتَّى يُقْضَى عَنْهُ دَيْنُهُ»[2].

هذا النبع الذي بين أيدينا يكشف عن شدة تحذير النبي (ﷺ) من الدين؛ حرصًا منه وشفقة على أمته؛ حتى تنعم بالراحة والسعادة في الدنيا، وبالفوز بالجنة في الآخرة، حتى قال الإمام الطِّيبِيُّ- رحمه الله – عنه: " لَعَمْرِي لَمْ نَجِدْ نَصًّا أَشَدَّ وَأَغْلَظَ مِنْ هَذَا فِي بَابِ الدَّيْنِ " [3] .

وهو كما بيَّن يتكون من رافدين اثنين :

الأول: يمثله كلام الصحابي الجليل راوي الحديث، وقد جاء في بدئه: (كُنَّا جُلُوسًا عِنْدَ رَسُولِ اللهِ (ﷺ)، فَرَفَعَ رَأْسَهُ إِلَى السَّمَاءِ، ثُمَّ وَضَعَ رَاحَتَهُ عَلَى

(١) عَبْدُ اللَّهِ بْنُ جَحْشِ بْنِ رِئَابِ بْنِ يَعْمَرَ بْن صبرة بن مرة بن كبير بن غنم بْن دودان بْن أسد بْن خُزَيْمَة. ويكنى أَبَا مُحَمَّد. وأمه أميمة بِنْت عَبْد المُطَّلِب بْن هاشم بْن عبد مناف بن قصي. ينظر: الطبقات الكبرى، أبو عبد الله محمد بن سعد بن منيع الهاشمي بالولاء، البصري، البغدادي المعروف بابن سعد: (٣/ ٦٥)، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٠هـ- ١٩٩٠م.

(٢) سنن النسائي، كتاب: البيوع، باب: التغليظ في الدين: ٧/ ٣١٤، حديث رقم: (٤٦٨٤)، تحقيق: عبد الفتاح أبو غدة، مكتب المطبوعات الإسلامية – حلب، الطبعة: الثانية، ١٤٠٦ هـ – ١٩٨٦ م، قال الشيخ الألباني: حسن.

(٣) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح لعلي بن سلطان محمد، أبو الحسن نور الدين الملا الهروي القاري: ٥/ ١٩٦٥. دار الفكر، بيروت – لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٢٢ هـ – ٢٠٠٢م.

جَبْهَتِهِ)، كما جاء في وسطه: (فَلَمَّا كَانَ مِنَ الْغَدِ سَأَلْتُهُ، يَا رَسُولَ اللهِ، مَا هَذَا التَّشْدِيدُ الَّذِي نُزِّلَ؟).

والآخر: يمثله كلام خير البرية (ﷺ).

وأول ما نبدأ به التحليل هو كلام راوي الحديث ؛ لأن ما ذكره من بيان، ترتب عليه بناء الحديث، وتكوين جمله ومعانيه .

وهذا البيان من هذا الصحابي الجليل يصف في دقة بالغة حالة، ومقام الحديث "فهو من الأحاديث التي تصف مقام الكلام قبل أن تحدثك بالكلام، وكأنها تريك ما كان عليه الحال، ثم تسمعك، وفي هذا مزيد عناية بأمر المعنى"(١).

كما تبدو فيه دقة الراوي، وشدة أمانته في النقل، وهذا حال كل جيل الصحابة في نقل المشهد بكل تفاصيله وجزئياته؛ لأنهم كانوا على يقين بأن دقة التبليغ عن رسول الله من صميم الدين، ومن الأمانات التي حملوها.

قلت: إن بيان الصحابي الجليل يصف مقام الحديث، تأمل قوله: (كُنَّا جُلُوسًا عِنْدَ رَسُولِ اللهِ(ﷺ) ....) وكان من الممكن أن يدخل إلى موضوع الحديث مباشرة فيقول – مثلًا –: قال رسول الله (ﷺ) ذات يوم: سُبْحَانَ اللهِ، مَاذَا نُزِّلَ مِنَ التَّشْدِيدِ؟، ولكن هذا الكلام لا يكشف عن مقام الحديث والسياق الذي قيل فيه .

وهذا لم يكن اعتباطًا من راوي الحديث؛ لأنه أراد أن يطلعنا على الجو الذي دار فيه الحديث، وما كان عليه القوم من دعة، وتؤدة، وطمأنينة، وكأننا نراهم يتناوبون أطراف الحديث بما يليق بمجلسهم مع رسول الله (ﷺ)، ثم ما كان منه (ﷺ) من شدة خوف ووجل، كان من تبعاته فزع الحاضرين من الصحابة أيضا، كما كشف عنه بيانه بعد ذلك بقوله: (فسكتنا وفزعنا).

(١) شرح أحاديث من صحيح البخاري – دراسة في سمت الكلام الأول، د/ محمد محمد أبو موسى، صـ: ٢٤٥، مكتبة وهبة، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ – ٢٠٠١م.

وقد كشف الصحابي الجليل عن هذا المعنى من الدعة والطمأنينة، تأمل قوله: (كنا جلوسًا عند رسول الله ﷺ) وكان من الممكن أن يكون بناء كلامه: كنا عند رسول الله (ﷺ) فرفع رأسه ...، ويكون الظرف (عند) متعلقًا بمحذوف واقع خبرًا لـ (كان)، ولكنَّ المعنى الذي يحرص الصحابي على إظهاره، وإن لم ينطق به صراحة، ما كان ليظهر؛ وذلك لأنه جعل (جلوسًا) مرتبطة بـ (كنا)، فالجلوس فيه معنى الطمأنينة والسكينة، ولذلك كان بيانه (جلوسًا) دون(قعودا)، فالجلوس يختلف عن القعود، وفرَّق بينهما أبو هلال العسكري بأن " الجلوس: هو الانتقال من سفل إلى علو. والقعود: هو الانتقال من علو إلى أسفل. فعلى الأول يقال لمن هو نائم: اجلس، وعلى الثاني لمن هو قائم: اقعد" [(١)]، وتتصاعد معاني الهدوء، والسكينة، بمراعاة هذا القيد(عند رسول الله) والواقع حالًا، وما يهمس به من الطمأنينة والأريحية، ثم لا تغفل التعبير بفعل الكون (كنا) والموغل في معنى المضي، والتعبير بصيغة المصدر (جلوسًا) وما فيه من الاسمية الدالة على معنى الثبوت والدوام، مما يدل على طول الجلسة، وما صحبها من الأريحية التي أحاطت بهم بمؤانسة خير البرية (ﷺ) لهم.

وتتكشف تلك المعاني بصورة أوضح في رواية الإمام أحمد (كُنَّا جُلُوسًا بِفِنَاءِ الْمَسْجِدِ حَيْثُ تُوضَعُ الْجَنَائِزُ وَرَسُولُ اللهِ (ﷺ) جَالِسٌ بَيْنَ ظَهْرَيْنَا)[(٢)].

(١) معجم الفروق اللغوية، أبو هلال العسكري : ١٦٤، ١٦٥، تحقيق: الشيخ بيت الله بيات، ومؤسسة النشر الإسلامي، التابعة لجماعة المدرسين بـ «قم»، الطبعة: الأولى، ١٤١٢هـ .

(٢) مسند الإمام أحمد بن حنبل، تتمة مسند الأَنصار، حَدِيثُ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ اللهِ بْنِ جَحْشٍ، رقم: (٢٢٤٩٣): (٣٧/ ١٦٣)، تحقيق: شعيب الأرناؤوط – عادل مرشد، وآخرون، إشراف: د عبد الله بن عبد المحسن التركي، الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة: الأولى، ١٤٢١ هـ – ٢٠٠١ م.

حيث حدَّدت مكان المجلس (بفناء المسجد) حيث السكينة والوقار، ويتحدد بدقة بقوله: (حيث توضع الجنائز) حيث العظة والاعتبار، وتذكر الموت والآخرة.

وقوله: (بَيْنَ ظَهْرَيْنَا) أي: "بيننا، وظهرينا: مقحم للتأكيد والدلالة على كمال النُّصُوصِ والقرب الشديد"(١)، وفي هذا ما يبرز حرص الراوي على أن ينقل مقام ورود الحديث بكل دقة، مما يشي بخطورة الحدث الذي هو بصدد البيان عنه.

ثم ينقلنا الصحابي الجليل إلى جو آخر يسيطر عليه الفزع والوجل، وكأننا أمام مقابلة معنوية بين موقفين من المواقف المتضادة، ويبدأ هذا الجو بالحكاية عن النبي (ﷺ): (فرفع رأسه إلى السماء ثم وضع راحته على جبهته) وهذا الوصف مقدمة لبيانه (ﷺ) وتمهيد له، وقد جاء في صورة مقدمة عملية مصحوبة بالحركة الفعلية، والتي تحكي ما جال بنفس النبي (ﷺ)، وما استرعاه، مما غيَّر جو الحديث من الدعة والطمأنينة، إلى شدة الوجل والخوف.

والجملة السابقة يظهر فيها عنصر المفاجأة والدهشة، وأن شيئا ما، لم يكن متوقعًا، استرعى النبي (ﷺ)، ولفت نظره، وأثار انتباهه، فحدث ما كان منه مِنْ رفع رأسه إلى السماء، وقد حققت الفاء في (فرفع) بومضتها السريعة الخاطفة تلك المفاجأة، وما بدا من ترقبه واطلاعه (ﷺ) على أمر غريب قد هالَهُ، واستدعاه أن يضع راحته على جبهته، كما يقول راوي الحديث : " ثُمَّ وَضَعَ رَاحَتَهُ عَلَى جَبْهَتِهِ".

ويظهر عنصر المفاجأة بصورة أوضح بمراعاة حرف الظرفية (إذ) في رواية الإمام أحمد: ((إذ رفعَ رأسَهُ، ثمَّ نَكَّسَهُ، ثمَّ وَضعَ راحتَهُ...))(٢)، وقد

(١) مرقاة المفاتيح : ٥ / ١٩٦٤ .
(٢) رواه أحمد في مسنده : ٥ / ٢٨٦، ٢٩٠.

أضافت جملة (ثم نكسه) ما انتابه (ﷺ) من قلق وهم وحزن، مما بدا له من أمر غير متوقع.

والتعبير بالحرف (ثم) في الموطنين على حقيقته من إفادة معنى العطف، مع الترتيب والتراخي الزمني، مما يبرز طول المدة الزمنية التي طال فيها رفعُ النبي (ﷺ) رأسه إلى السماء، وهذا يشي بأن النبي (ﷺ) أثناء تلك المدة الزمنية أُوحى إليه شيء أفزعه، وانتابه، واستولى على اهتمامه، وأذهل فكره مما أطال مدة رفعه إلى السماء ليستقبله في دقة وترقب، وكان من آثاره ما بدا عليه من تنكيس رأسه، وقد جسَّد الطباق الواقع بين فعلي (رفع، ونكس) صورة التغيُّر النفسي الذي ألمَّ به (ﷺ)، وما صحبه من قلق، ووجل، وخوف على أمته، وقد ازدادت كثافة تلك المعاني بمراعاة تلك الكناية الكاشفة المصورة، والمعبرة أدق تعبير عن تلك المعاني في قوله: (ثم وضع راحته على جبهته) وهذه المعاني لم تكن لتظهر لو عبَّر هذا الصحابي بقوله: (فرفع رأسه إلى السماء ففزع ووجل)؛ لأن هذا القول مجرد إبانة عن المعنى المباشر الذي يفهم من ظاهر اللفظ، أما بيان الصحابي ففيه معنى المعنى، وقد أبان الإمام عبد القاهر عن كليهما بقوله: " وإذ قد عرفت هذه الجملة، فههنا عبارة مختصرة، وهي أن تقول: (المعنى) و(معنى المعنى)، تعني بالمعنى: المفهوم بين ظاهر اللفظ والذي تصل إليه بغير واسطة، وبمعنى المعنى: أن تعقل من اللفظ معنى، ثم يفضي بك ذلك المعنى إلى معنى آخر"[(١)].

وهذا القلق والخوف الذي بدا عليه (ﷺ) والذي جعله يضع راحته على جبهته لم يكن لشيء يخصه ويتعلق به، بل رحمة وشفقة على أمته، حاول النبي (ﷺ) أن يخفف عن نفسه شدة وطأة ما أُخْبِر به واطَّلع عليه بهذا الصنيع، كما هو حال أحدنا إذا ألمَّت به واقعة لم يكن يتوقعها، فيضع يديه

(١) دلائل الإعجاز، للإمام عبد القاهر الجرجاني : ٢٦٣، قرأه وعلق عليه : محمود محمد شاكر، الهيئة المصرية العامة للكتاب ٢٠٠٠ م .

عفويا على رأسه، ولكن ما كان النبي (ﷺ) ليصنع مثل صنيعنا بوضع يديه على رأسه، بل وضَعَها كما يقول الراوي (على جبهته)، وفرق بين أن تضع يديك على جبهتك، وأن تضعها على رأسك، فالأول: فعلُ المستروحِ من فزع أو هم وقلق، والثاني: فيه شوب من الاعتراض على القدر مما أفزع وأحزن، وهذا ينافي مقام النبوة.

ويتعاضد مع هذا المعنى ما كشف عنه الصحابي الجليل في دقة متباينة، حينما آثر التعبير بلفظ (راحته) في قوله: (ثم وضع راحته على جبهته)، ولم يقل: ثم وضع يده، أو كفة مثلا، فالراح كما يقول ابن منظور: هي الكف، والرواح: الارتياح، والراحة: ضد: التعب، واستراح الرجل من الراحة، والرواح والراحة من الاستراحة ووجدت لذلك الأمر راحة أي خفة، وقال الليث: الراحة: وِجدانُك رَوْحاً بَعْدَ مَشَقَّةٍ، وأراح الرجل : مات، كأنه استراح، والراحة: العِرس؛ لأنها يستراح إليها، وراحةُ الْبَيْتِ: ساحتُه. وراحةُ الثَّوْبِ: طَيُّه. والرَّاحَةُ مِنَ الأَرض: المستويةُ، فِيهَا ظُهورٌ واسْتواء تُنْبِتُ كَثِيرًا . وَالْمَطَرُ يَسْتَرْوِحُ الشجرَ أَي: يُحْييه[1].

فاللفظة يدور معناها حول كل ما يفيد معاني الراحة، والهدوء، والدعة، والبعد عن المشقة والشدة والتعب، وكأن الصحابي الجليل عندما آثر التعبير بهذه اللفظة كأنه يطلعنا عن حال النبي (ﷺ) وهو يُرَوِّح عن نفسه، بوضع راحته على جبهته، وهذا من التناسب البديع الخفي بين دقة اختيار اللفظ، والموقف الداعي إلى ما يهدِّئ ويطمئن من شدة ما أفزع وأصاب.

ويتلاقى التعبير بتلك المفردة مع حرف العطف (ثم) في قول الصحابي الجليل (ثم قال: سبحان الله ...) فالتعبير به فيه دلالة على طول الفترة الزمنية بين استقباله (ﷺ) لما أفزعه ومحاولته الاسترواح من وقع تلك الشدة ومن هول

(١) ينظر : لسان العرب لابن منظور : (روح) . دار صادر – بيروت، الطبعة: الثالثة – ١٤١٤ هـ.

ما أُخبر به، وبين إخباره بذلك، فهذا الحرف يجسد محاولة النبي (ﷺ) تثبيت نفسه، وتهدئة روعه، حتى نطق لسانه بأول لبنة لفظية من لبنات الحديث: (سبحان الله).

وهذه الجملة ليست بعيدة في مغزاها النفسي عن السياق، بل كانت توطئة جيدة لقوله (ﷺ) بعد ذلك: (ماذا نُزِّل من التشديد.. ؟) كما كانت في غاية التلاؤم مع حاله (ﷺ) من طلب ما يُهَدِّئُ ويُروِّحُ به عن نفسه، بما تفيض به من معاني الثناء على الله بالتمجيد والتنزيه .

ولفظة (سبحان الله) من الألفاظ الدالة على التعجب، وهي في الأصل من الأساليب الخبرية، وتعتبر في إنشائها لمعنى التعجب من الصيغ السماعية، حيث سمع عن العرب استعمالهم لها في التعجب، وقد كثر التعجب بها على ألسنة الخاصة والعامة، وذلك لخفتها، واشتهارها وارتباطها بمعنى ديني، وهو تنزيه المولى – تبارك وتعالى – عن كل ما لا يليق به، وقد استعملت هذه اللفظة في التعجب أو التعجيب كثيرا في الذكر الحكيم، حتى أصبحت كأنها من الصيغ القياسية لإفادة معنى التعجب في القرآن الكريم(١).

واستعمال لفظة (سبحانه) في التعجب قيل : من قبيل الكناية، لأن أصل ذلك أن يسبِّح الله عند رؤية العجيب من صنائعه – تعالى – تنزيها له سبحانه – عن أن يصعب عليه أمثاله، ثم كثر حتى استعمل في كل متعجَّب منه .

وقيل: بل هو – أي التعجب – من المعاني الثواني، والتي يطلق عليها (مستتبعات التراكيب)(٢) وهو مصطلح بلاغي يكتنفه كثير من الغموض،

(١) ينظر: الأساليب الإنشائية غير الطلبية في القرآن الكريم، د/ سعيد إسماعيل الهلالي: ١٢٧، رسالة دكتوراه، مخطوطة في كلية اللغة العربية بالمنصورة.

(٢) ينظر: السابق: ١٣٠، وروح المعاني في تفسير القرآن العظيم للعلامة أبي الفضل شهاب الدين السيد محمود الآلوسي: ١٢٧، دار الفكر – بيروت – ١٤٠٢ هـ – ١٩٨٣ م .

ويعني المعاني التي تؤديها العبارة عن طريق قرائن سياقها، وما توحي به ألفاظها وصورها من انطباعات وظلال[١].

وتزداد درجة التعجب وتتكثف دلالتها بمراعاة تلك الرواية الأخرى، والتي أعاد فيها النبي (ﷺ) هذه الجملة مرة أخرى (سبحان الله – سبحان الله)[٢] تأكيدًا لمعنى التعجب، ومدى سيطرة هذا المعنى على حسه وقلبه (ﷺ) في هذا الموقف، ثم يتبع النبي (ﷺ) تلك الجملة المفعمة بمعاني التعجب، والتي هي من وادي الإنشاء غير الطلبي، بأسلوب إنشائي آخر، وهو الاستفهام المتضمن لمعنى التعجب والدهشة والاستغراب فيقول: ماذا نزل من التشديد ؟

والاستفهام السابق لا يراد به حقيقته البلاغية من طلب الفهم وإرادة المعرفة، بل هو مبطن بألوان من المعاني الثانوية الخصبة، والظلال المديدة[٣]، والتي جاءت في غاية المناسبة للسياق الناطق بالتعجب والدهشة من عدم توقعه (ﷺ) لما نزل، أو استغرابه من هذا الحكم الذي أوحي إليه، وكيف تضمن كل هذا التشديد، وهذا الاستفهام يبرز جلل ما ألم به (ﷺ) من الهول، وفداحة ما نزل بنفسه من القلق شفقة على أمته.

وقد جاءت جملة الاستفهام السابقة مفصولة عن سابقتها والمتضمنة لمعنى التعجب لما بينهما من كمال الاتصال، فالأولى إنشائية لفظًا، خبرية معنى، والثانية إنشائية لفظا ومعنى، وجاءت مفسرة ومبينة للأولى، فتقررت بها سابقتُها، وصعَّدت من معاني التعجب والدهشة وكثَّفت من ظلالهما.

---

(١) ينظر: مستتبعات التراكيب بين البلاغة القديمة والنقد الحديث، د / عبد الغني محمد بركة: صـ: ٥٠، دار الطباعة المحمدية – الطبعة الأولى – ١٤٠٩ هـ – ١٩٨٩ م.

(٢) مسند الإمام أحمد بن حنبل، تتمة مسند الأَنصار، حَدِيثُ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ اللهِ بْنِ جَحْشٍ، رقم: (٢٢٤٩٣): (٣٧/ ١٦٣).

(٣) ينظر: الأساليب الإنشائية وأسرارها البلاغية في القرآن الكريم، د / صباح دراز: ١٢١، مطبعة الأمانة – الطبعة الأولى – ١٤٠٦هـ – ١٩٨٦م.

كما أن تلك الجملة السابقة فيها لون من ألوان التناسب والتوافق مع ما أَخْبَر به راوي الحديث عنه (ﷺ) بقوله (فرفع رأسه إلى السماء) فهما معًا يرميان إلى معنى معين، وهو أن الحديث مبني على الغيبيات، وأن هذا التشديد الذي نزل ما هو إلا وحي من السماء الذي تلقاه عند رفع رأسه، فما كان النبي (ﷺ) ليرفع رأسه في هذا المقام إلا لشيء قد نزل.

والتعبير بالفعل (نُزِّلَ) لما لم يسم فاعله للعلم بالفاعل، والتركيز على الحدث الأهم وهو الاهتمام بالمنزل، وليس بيان من أَنزَل.

وكلمة (التشديد) في جملة الاستفهام السابقة هي بيضة الحديث، وقطبه، وعموده الذي بُني عليه، وهي القاطرة لبيانه (ﷺ) والذي أفصح عنه بقوله بعد ذلك: والذي نفسي بيده ... فالحديث كله مبني على تلك اللفظة، وما جاء فيه من بيان هو تحليل وتفصيل لتلك الكلمة.

وتأمل الدلالة الصوتية لتلك الكلمة والتي جسدت وقع هذا الحدث وصداه في نفسه (ﷺ)، فالشين وما فيها من التفشي والانتشار، وحرف الدال ذي الجرس القوي وتكراره وما يحمله من فخامة وقوة؛ لما فيه من جهر وانفجار[(١)]، كل هذا يحكي الموقف، ويصور المعنى، ويبرز هول ما استرعى النبي (ﷺ)، وهذا من دقة النبي (ﷺ) في اختيار اللفظ ذي الجرس الصوتي المناسب لمقصوده، والمتناغم مع معناه، فمن " فضيلة الجرس في البيان النبوي أن نرى لفظا في الحديث واحدا يرسم صورة المعنى الكامل أو يساعد في أكبر حيز من الإطار على تصويره أو تأكيد معالمه في جوانب الصورة"[(٢)]، كما لا تغفل

(١) ينظر: البرهان في تجويد القرآن محمد الصادق قمحاوي: ٣٧، عالم الكتب، بيروت ١٤١٤هـ – ١٩٩٤م، دراسة الصوت اللغوي، د/أحمد مختار عمر: ٣١٦ و ٣٢٤، عالم الكتب، الطبعة الثالثة، القاهرة ١٩٨٥م.

(٢) الحديث النبوي الشريف من الوجهة البلاغية د/ عز الدين علي السيد: ٢٩١، ط. دار اقرأ – بيروت – الطبعة الأولى ١٤١٤ هـ– ١٩٨٤ م.

اقترانها بأل التي للحقيقة والجنس[1]، ومجيء تلك الكلمة في صورة المصدر (التفعيل) وما فيه من الإيحاء بالمبالغة في شدة هذا الحكم، ومدى وقعه في نفسه (ﷺ) .

والكلمة في سياقها ليست على حقيقتها اللغوية، بل هي من قبيل المجاز المرسل لعلاقة المسببية؛ حيث أطلق المسبب (التشديد) وأريد السبب، وهو الحكم، أو الأمر الذي اقتضى هذا التشديد، وهذا المجاز هو الآخر يكشف عن هول ما ألمَّ بالنبي (ﷺ) ولحق به، حتى جعل التشديد هو الذي نزل، وليس الحكم الذي تضمنه.

ثم يظهر أثر وقع هاتين الجملتين من بيانه (ﷺ) على نفوس الصحابة السامعين مما جعلهم يفزعون، وكان موقفهم كما يقول راوي الحديث: (فسكتنا وفزعنا).

وهو موقف يبدو متناقضًا في الظاهر مع ما سمعوه منه (ﷺ)، فكونه ينطق بهذه الجملة المشحونة بالدهشة والتعجب، والموحية بكل معاني الفزع والوجل، كان يستدعي منهم الاستفسار والسؤال المباشر، ولكن كان موقفهم السكوت والفزع . وهذا يبرز أثر الصدمة ووقعها الشديد على نفوسهم، ومن هنا جاء التعبير بالفعل (فزعنا) عقب (سكتنا)، وهو من باب الترقي في تصوير ما ألم بهم، والفزع، كما يقول الراغب: "انقباض يعتري الإنسان من الشيء المخيف وهو من جنس الجزع"[2].

وتبدو دقة الراوي في بيانه بإيثاره التعبير بالفعل (سكتنا) دون (صمتنا)؛ لأن السكوت ينحصر معناه في ترك الكلام، أو ترك الجهر به، أما الصمت

(١) لام الجنس: المراد بها الماهية والحقيقة بغض النظر عما تشمله من أفراد، ينظر: بغية الإيضاح للشيخ عبد المتعال الصعيدي: ٩٤/١، المطبعة النموذجية – بدون تاريخ.

(٢) المفردات في غريب القرآن، للراغب الأصفهانى: ٣٨١، تحقيق: صفوان عدنان الداودي، دار القلم، الدار الشامية – دمشق، بيروت، الطبعة: الأولى – ١٤١٢هـ.

فهو طول السكوت وحبسة اللسان[١]، وكأن الصحابة – رضوان الله عليهم – يراودهم الكلام، وهو على أطراف ألسنتهم، ولكنه الأدب الراقي في مقام النبوة، فلم يحاول أحدهم أن يسأله(ﷺ) عن هذا التشديد الذي نزل، كما أنهم يعلمون أن السؤال عما سكت عنه الشرع – والرسول مصدر من مصادره – ولم يبينه من الأسئلة المذمومة، ولذلك كانوا يتهيبون من سؤاله (ﷺ)، فقد أخرج ابن حبان عن أنس قال: كنا نهينا أن نسأل رسول الله عن شيء، وكان يعجبنا أن يجيء الرجل العاقل من البادية فيسأله ونحن نسمع [٢].

وقد صرَّحت رواية أخرى بتلك الهيبة، ((فهبنا أن نسأله))[٣]، كما أن هذا الموقف من الصحابة يكشف عن فطنتهم، فربما لو سألوا النبي (ﷺ) عن هذا التشديد الذي نزل مع تضمنه حكمًا شرعيًا لا يقدرون عليه لأصبح نافذا ومن الأحكام التكليفية الملزمون بها.

وقد كشفت رواية أخرى عن سبب سكوتهم، وهو اعتقادهم أن هذا التشديد يراد به نزول العذاب ((فسكتنا يومنا وليلتنا فلم نر إلا خيرا حتى أصبحنا))[٤]، وقد "دلَّ هذا على أن سكوتهم ذلك لم يكن إلا عن تيقنهم أن النازل هو العذاب"[٥].

---

(١) ينظر: لسان العرب: (سكت) و(صمت).

(٢) صحيح ابن حبان، باب : فرض الإيمان، ١ / ٣٦٨، رقم : ١٥٥، حققه وخرج أحاديثه وعلق عليه شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة – بيروت – الطبعة الأولى – ١٤٠٨ هـ – ١٩٨٨ م.

(٣) صحيح البخاري، كتاب: الجنائز، باب: الصدقة تكفر الخطيئة: ١١٣/٢، رقم: (١٣٦٨)، تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر، الناشر: دار طوق النجاة (مصورة عن السلطانية بإضافة ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي)، الطبعة: الأولى، ١٤٢٢هـ.

(٤) مسند الإمام أحمد بن حنبل، تتمة مسند الأَنصار، حَدِيثُ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ اللهِ بْنِ جَحْشٍ، رقم: (٢٢٤٩٣): (٣٧/ ١٦٣).

(٥) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، باب: الإفلاس والإنظار: ٥/ ١٩٩٤، ١٩٩٥.

وفي رواية: (فلم نرها خيرا)[1] بعود الضمير على السكوت، أي: فلم نر حالة السكوت خيرًا له[2].

ومع اختلاف تلك الروايات، ومع تعددها، فما زال الغموض والإبهام يسيطران على الموقف، فالصحابة لم يعرفوا سبب فزعه(ﷺ)، وأصبح حالهم حال الخائف الوجل، من شدة هول كلمته (ﷺ) (سبحان الله ! ماذا نزل من التشديد؟) ووقعها في نفوسهم، ولكن ربما تتطلع بعض النفوس إلى البيان والاستيضاح، والناس بطبيعتهم ليسوا سواءً في تلقِّيهم لمثل هذه المواقف، وربما تطلعت نفوسُهم جميعا إلى معرفة هذا التشديد الذي نزل، ولكن كان لهذا الصحابي الجليل شرفُ السبق في مبادرته بطلب الاستيضاح والبيان من رسول الله (ﷺ)، كما يتضح من كلامه (فلما كان من الغد سألته يا رسول الله).

وكأنيّ أرى الصحابة ومعهم هذا الصحابي الجليل، قد قاموا من مجلسهم يسيطر عليهم الخوف والوجل بعد أن كان يغشاهم الهدوء والطمأنينة بصحبة نبيهم الكريم، ولم تغش عين أحدهم النوم، وبات كل منهم في وجل وتحفز ينتظر الصباح، حتى يسأل ويستوضح من رسول الله (ﷺ)، كل هذا وإن لم ينطق به البيان، ولم يُصَرَّح به في اللفظ، إلا أنه ليس ببعيد عن المشهد، وليس تحميلا للنص ما لا يتضمنه .

يقول أحد الباحثين: "إن القرآن حين يُحذف فيه ما يُحذف من مشاهد وأحداث يحمل السامع أو القارئ علي المشاركة في بناء ما يمكن أن يُقَصَّ؛

(١) مسند الإمام أحمد بن حنبل، تتمة مسند الأَنصار، حَدِيثُ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ اللهِ بْنِ جَحْشٍ، رقم : (٢٢٤٩٣) : (٣٧/ ١٦٣) .

(٢) ينظر: الفتح الرباني لترتيب مسند الإمام أحمد بن حنبل الشيباني ومعه بلوغ الأماني من أسرار الفتح الرباني، لأحمد عبد الرحمن البنا الساعاتي: ١٥/٩٠، الطبعة: الثانية، دار إحياء التراث الإسلامي، بيروت – لبنان.

تنشيطا لخياله، وتحريكًا لوجدانه، فيظل –أبدًا – مؤسرًا لما يسمع أو يقرأ، ماضيًا على هوى نفسه، وقد استمتعت نفسه بكل مزايا الفن الجميل"[١].

وقد بدا من المفردات المكونة لتلك الجملة، (فلما كان من الغد) معاني الترقب، وشدة حرص هذا الصحابي على معرفة هذا الموقف، ورغبته الشديدة في استيضاحه، تأمل الفاء في قوله: (فلما) وما تنطق به من معاني التلهف على البيان والاستيضاح، فهي بومضتها السريعة الخاطفة تومئ " إلى شدة استدعاء المقام لهذا القول، وأن داعيه كان أقوى من أن يحمل المرء مؤنة الصبر عنه"[٢].

كما لا تغفل (لمَّا) التعليقية، وما يصحبها من معنى الظرفية[٣]، والفعل الماضي (كان) والذي طوى الزمن بسرعة، مبادرة إلى الحدث الأهم، وهو سؤاله للرسول (ﷺ)، والتعبير بـ (من) الزائدة [٤] في قوله (من الغد) وكأنه لم ينتظر الغد، بل كان سؤاله في أول تباشير هذا اليوم الجديد، ولو قال: وفي الغد سألت النبي (ﷺ) عن هذا التشديد الذي نزل، ما كانت تلك المعاني.

---

(١) التصوير الفني في القرآن لسيد قطب : ١٤١، دار الشروق – الطبعة الشرعية – ط الثانية عشرة – ١٤٢٣ هـ – ٢٠٠٢ م، وهذا النص وإن كان خاصا من حيث مراد كاتبه بالقصص القرآني، إلا أنه ينطبق أيضا على مظاهر الحذف في القصص في البيان النبوي.

(٢) فقه بيان النبوة منهجا وحركة، د / محمود توفيق سعد : ٣١، مطبعة الأمانة – ط الأولى، ١٤١٣هـ – ١٩٩٢م.

(٣) ينظر: الجني الداني في حروف المعاني، أبو محمد بدر الدين حسن بن قاسم بن عبد الله بن عليّ المرادي المصري المالكي : ٥٩٤، تحقيق: د .فخر الدين قباوة –الأستاذ / محمد نديم فاضل، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤١٣ هـ – ١٩٩٢ م.

(٤) هذا على اعتبار أن (كان) تامة، و(الغد) فاعل (كان) مجرور لفظا مرفوع محلا، ويجوز أن تكون (كان) ناسخة، واسمها مقدر، أي: فلما كان الأمر من الغد، وتكون (من) حينئذ تبعيضية.

وإيثار التعبير بالسؤال في جواب (لما) التعليقية (سألته) دون (فلما كان من الغد قلت: يا رسول الله)؛ وذلك لأن السؤال هو الأنسب لحال هذا الرجل وجهله بالموقف، وهو الذي يبرز حرارة الشك والحيرة، وهو سبيل اليقين والوصول إلى الحقيقة.

ومع ما يبدو على هذا الصحابي من معاني التلهف، وشدة الرغبة والشغف في المعرفة والاستيضاح لهذا التشديد الذي نزل؛ إلا أنه لا ينسى مقام النبوة وما يتطلبه من الأدب في خطابه (ﷺ) فيناديه متلهفًا: (يا رسول الله) غير ناس لهذا الأدب الراقي، الذي تعاملوا به مع النبي الكريم (ﷺ)، والذي كان شأنهم الدائم.

ولعل الرجل كان خائفًا وهو يتجرأ، و يسأل من بين الصحابة الذين حضروا مشهد أمس المشحون بمعاني الوجل والفزع، ولذا نراه يمهد للرسول بهذا النداء المفعم بمعاني التعظيم، مؤثرا حرف النداء الذي للبعيد، وما فيه من استغاثة صارخة، وبما يحمله من استطالة في المد الكاشف عن التودد، والاستمالة، وشدة الحاجة، والتلهف والتعظيم والتوقير لرسول الله، تنزيلًا لبعد مرتبته ومنزلته، منزلة البعد المكاني، فنودي بأداة النداء التي للبعيد، إما لاستبعاد الداعي نفسه عن رتبة المنادي، أي : تصور نفسه في مكان بعيد عن تلك الحضرة، كقولنا : يا الله، مع أنه أقرب إلينا من حبل الوريد، وإما للحرص على إقباله، فصار إقبال المنادى كالبعيد [1]، ثم هو يختار لفظ الرسالة، مؤثرًا التعبير بها دون النبوة، وكأن لسان حاله يقول للرسول لا أسألك إلا لأنك مرسل من الله، وأنت الرحمة المهداة الذي يكشف عني وعن الصحابة ما نحن فيه من حيرة وفزع.

(١) ينظر: شروح التلخيص (مختصر العلامة سعد الدين التفتازاني على تلخيص المفتاح) للخطيب القزويني:٢ /٣٣٤، دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان .

ثم يأتي سؤاله: (ما هذا التشديد الذي نزل؟!)، و(ما) استفهامية، والمطلوب بها معرفة حقيقة الشيء وشرحه[١] والاستفهام هنا على حقيقته[٢]، وغرضه الاستيضاح والاستبيان لهذا التشديد الذي نزل" وتقريرُ السؤال: ما التشديد النازل أهو عذاب وقد انتظرنا ولم نر منه شيئا، أم هو وحي، ففيم نزل؟"[٣].

ورغبة من الصحابي الجليل في شدة الاستيضاح، وتواؤما مع ما ترنو إليه نفسه وتتطلع نراه يستحضر لفظ(التشديد) في سؤاله، معبرا بالمظهر في موضع الإضمار؛ إذ مقتضى الظاهر أن يقول ما هذا الذي نزل ؟ ولكن المعنى، وشدة وقع الكلمة في نفسه، وما بثته من روع ووجل في نفوس الصحابة الحاضرين، مع مراعاة أن تلك المعاني ما زالت تسيطر عليهم وتلح على خواطرهم وتستولي على مشاعرهم وتستبدهم لا تفارقهم، كل هذا كان مدعاة لأن يظهر هذا اللفظ في النظم، مع أنه كان من الممكن أن يطويه في بيانه، وذلك من أجل أن يطابق كلامه مقتضى حاله، وحال الصحابة معه .

كما نراه يستحضر التشديد وكأنه شاخص في قلبه، وماثل في عقله ووجدانه؛ حيث أبرزه من خلال التعبير باسم الإشارة (هذا) الذي للقريب، فضلا

(١) ينظر : الأساليب الإنشائية في النحو العربي، أ/ عبد السلام هارون : ٢٠، مكتبة الخانجي – القاهرة – ط الخامسة – ١٤٢١ هـ – ٢٠٠١ م.

(٢) يرى أحد الباحثين أن أكثر أساليب الاستفهام الواردة في الصحيحين المراد منها طلب الفهم، وإرادة العلم عن الشيء الذي يسأل عنه، وأن هذه الأحاديث تمثل نسبة كبيرة، تزيد بكثير على الاستفهام الذي أريد منه الدلالة على معاني الاستفهام البلاغية الأخرى، ينظر: الاستفهام في الصحيحين – خصائصه التركيبية ومعانيه البلاغية، عبد العزيز العمار: ٥٧٧، منشورات جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ١٤٣٠ هـ – ٢٠٠٩ م.

(٣) مرقاة المفاتيح: ١٩٦٥/٥.

عما أفاده التعبير به من قصد تمييزه أكمل تمييز؛ لأن التمييز الأكمل ما كان بالعين والقلب، وهذا ما يحققه التعريف بالإشارة.

ولم يكتف الصحابي الجليل بهذا المسلك البلاغي الذي كشف به عن مكنون نفسه، وما تحمله من فزع ووجل من وقع تلك الكلمة(التشديد)، بل نراه يتبعها بجملة الوصف (الذي نزل)، وكأنه أراد أن ينص على هذا التشديد الذي نزل بذاته، مؤثرا التعبير بالاسم الموصول بما يحمله من معاني التعظيم والتفخيم؛ تواؤمًا مع حال نفسه التي ما زال يسيطر عليها الإبهام والغموض في شأن هذا التشديد، والتي لم تعرف عنه حتى لحظة السؤال سوى مضمون جملة الصلة فحسب، ومن هنا تعيَّن التعبير به طريقا لإحضار معناه، كما يقول البلاغيون(١).

وهنا تتبدي مظاهر رحمته (ﷺ) في إسعاف هذا الصحابي الجليل ببيان ما تطلعت إليه نفسه، وتشوقت إلى معرفته، فيقول راوي الحديث: (فقال) باقتران فعل القول بالفاء؛ حيث ومضتها الخاطفة، وجرسها السريع؛ تهدئةً لروع هذا السائل، وما تحمله في طياتها من معنى التسبب، فما كان النبي (ﷺ) ليكشف عن هذا التشديد لولا سؤاله.

وبهذا ينتهي بيان هذا الصحابي الجليل، والذي استوعب جزءا كبيرا من الحديث، ويظهر الرافد الثاني، وهو – بلا شك – يختلف في طعمه، وصفاء لغته، ودقة بيانه عن سابقه؛ لأنه من كلام خير النبوة، وهو – صلوات الله وسلامه عليه – أعلم البشر بمواقع الكلام، وتخير اللفظ، والتعبير عنه في أدق لغة وأصفاها.

وقبل أن ألج في تحليل لغة بيانه (ﷺ) والتي تضمنت الإجابة عن سؤال هذا الرجل، أود أن أتساءل : لماذا لم يُبن النبي (ﷺ) عن هذا التشديد الذي نزل مباشرة، ولماذا يترك الصحابة وهم على ما فيه من الفزع والخوف الذي

(١) ينظر: شروح التلخيص: ٣٠٢/١.

تملكهم جميعا، دون أن يسعفهم مباشرة – وهو الرحمة المهداة – بما يهدئ من روعهم وتطمئن به نفوسهم، وتستريح به قلوبهم؟

وكأن المتوقع أن يكون بناء الحديث: فقال: سبحان الله ماذا نزل من التشديد؟، فسكتنا وفزعنا – فقال : والذي نفسي بيده .... الحديث، فلماذا يتركهم يومهم وليلتهم حتى يأتي أحدهم ويسأله؟

أقول: لو كان بيانه (ﷺ) هكذا، لما أفصح عن معنى التشديد الذي أوقعه في نفوسهم، وكأنه أراد أن يلفت انتباههم، ويستثير معاني الخوف والتهديد في نفوسهم، وأن تظل تلك المعاني كامنة في نفوسهم بعض الوقت عندما ألقى بتلك الجملة الاستفهامية المفعمة بمعاني التعجب والدهشة، والتي كان لها وقع القذيفة في نفوسهم، إبلاغا منه (ﷺ) في التهديد، وإمعانا في الإرعاد، حتى إذا جاء بيانه استقر في النفوس، وتمكن في القلوب، واستولى على المشاعر، وهذا – بلاشك – من البلاغة بمكان؛ لأنه من التهيئة والتمهيد للمعنى، والنبي (ﷺ) حريص كل الحرص على أن يغرس هذا المعنى – التشديد في الدين – في نفوس الصحابة، ومن هنا لم يُلق المعنى غفلا هكذا من أول الأمر، وإنما مهد له بهذا التعجب، وترك نفوس السامعين تستشرف إليه وتتطلع إلى سببه، حتى إذا جاء بيانه كان كوقع الماء البارد على شديد الظمأ، يقول الإمام عبد القاهر: "وليس إعلامك الشيء بغتة مثل إعلامك له بعد التنبيه عليه، والتقدمة له"(١).

وكذلك فعل النبي (ﷺ) وألقى بجزء من المعنى فيه إبهام، جعل النفوس تتطلع إلى إيضاحه، حتى إذ جاء بيانه استقر في النفوس، وابتعدت عما تضمنه من تحذيرٍ من الانزلاق نحو أبواب الديون وتبعاتها، حرصًا منه (ﷺ) على حفظ أمن المجتمع واستقراره، وإضفاء السكينة والطمأنينة على أفراده،

(١) دلائل الإعجاز: ١٣٢.

وصدق الشيخ الغزالي حين قال: "إن الله ربى محمدا ليربي به العرب، وربي العرب بمحمد ليربي بهم الناس أجمعين"(١).

وقد استهل النبي (ﷺ) إجابته على سؤال هذا الرجل بما يقرع السمع، ويأسر القلب، ويستولى به على المشاعر، وكان عماده في ذلك أسلوب القسم، فقال: (والذي نفسي بيده)، وكان البدء بأسلوب القسم مباشرة دون الكشف عما وقع فيه هذا التشديد؛ كأن يقا: (التشديد الذي نزل في أمر الدين)، تشويقا للرجل، وإثارة لحسه، ودفعا له إلى مزيد من الانتباه والتطلع إلى ما وقع فيه هذا التشديد، والذي كشف عنه (ﷺ) في آخر بيانه .

وقد آثر النبي (ﷺ) تلك الصيغة اللافتة في قسمه (والذي نفسي بيده) والتي من شأنها أن تشحذ الأذهان، وتثير الفكر والوجدان، وهي كما يقول ابن حجر: "من أيمانه التي إذا اجتهد في اليمين أقسم بها"(٢)، وهذا مما يؤكد خطورة ما أقسم عليه (ﷺ)، حيث انتقى أقوى صور القسم وأبلغها؛ حرصًا منه على ألا نقع في براثن ما حذَّر منه، وهو الدين، فنجعله سبيلنا الدائم في حركة الحياة وتعاملاتنا المالية، وأن نحاول جاهدين أن نبتعد عنه ما أمكنت الظروف، وهذا من شدة شفقته وحرصه على أمته – صلوات الله وتسليماته عليه – فالنبي الكريم " لم يقسم – وحاشاه – ليجتذب القلوب لتصديقه، فهو الصادق الأمين، ولهذا فإن ورود القسم في البيان النبوي ينصرف إلى أن المحلوف عليه من الأمور المهمة ذات البال التي ينبغي أن يستشرف لها السامع، ويتلقاها تلقى الاهتمام لما تعيه من مدلول ديني خطير في حياة الفرد والمجتمع"(٣).

---

(١) الطريق من هنا للشيخ / محمد الغزالي: ١٢٣، ط دار الشروق – بدون.

(٢) فتح الباري شرح صحيح البخاري أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشافعي: ١١ / ٧٣٣، دار المعرفة – بيروت، ١٣٧٩هـ.

(٣) الحديث النبوي الشريف من الوجهة البلاغية، د/ كمال عز الدين: ١٠٦، دار اقرأ، ط: الأولى، ١٤٠٤هـ – ١٩٨٤ م.

وقد جاءت جملة القسم في الحديث الشريف – محل الدراسة – واقعة موقعها الأمثل، مشتملة مع إيجازها على فنون بلاغية عدة، تلتقي كلها حول ما يهدف إليه النبي (ﷺ) من بيانه، موظفا العديد من الوسائل البلاغية في الوصول إليه، وهو التحذير من الدين، ومن هذه الخصائص:

- أن جملة القسم هذه بنيت على الإيجاز بالحذف؛ حيث حذف منها فعل القسم، كما حذف المقسم به، وتقدير الكلام : أقسم والله الذي نفسي بيده، وفي حذف فعل القسم تصفية للعبارة بحذف ما هو معلوم من الكلام، وفي حذف المقسم به (الله) اكتفاء بصفته الدالة عليه (الذي نفسي بيده)؛ إذ هي لا تكون إلا له – سبحانه – يقول ابن حجر: "والمعنى: أن نفوس العباد بيد الله، أي : بتقديره وتدبيره"(١).
- أن حذف المقسم به، والاقتصار على صفته الدالة عليه يقودنا إلى أن في التعبير معنى كنائيا، وهو الكناية عن موصوف، حيث أطلقت الصفة (والذي نفسي بيده)؛ وأريد بها موصوفها وهو الله (ﷻ)، ولاشك أن الكناية من شأنها أن تؤكد المعنى؛ لما فيها من إثباته مصحوبا بالدليل والبرهان، وفي إظهار اللفظ المكني به غاية التفويض والتسليم من رسول الله لأمر ربه، ومن هنا استثمر النبي (ﷺ) تلك الصيغة القوية اللافتة، والتي جاءت في ثوب تلك الكناية البديعة، والتي تعد من خصائص بيانه (ﷺ)، وهو ما ذهب إليه أحد الباحثين حيث قال: " القسم بالتعبيرين (والذي نفسي بيده) و(الذي نفس محمد بيده) خاص بالحديث الشريف، فلم أر أو أقرأ فيما طالعت من نصوص قبل الحديث من استخدام هذه الصيغة إلا ما ورد على ألسنة بعض الصحابة، مثل أبي هريرة، وعمر بن الخطاب (رضي الله عنهما)؛ وذلك لتأثرهما المباشر بأسلوب النبي

(١) فتح الباري : ٢ / ١٨٤ .

(ﷺ)، أما بعد هذا العهد، فلعل هذا الأسلوب – أيضا – لم يرد، ليظل أسلوبا منفردا في الحديث الشريف"(١).

- كما يتضح من خلال نظم تلك الكناية وبنائها اللغوي دقة النبي (ﷺ) في اختيار الألفاظ المعبرة عنها؛ حيث استثمر التعبير بالاسم الموصول (الذي) وعرف المسند إليه بالموصولية، وذلك "لتعظيمه – سبحانه – أبلغ تعظيم، وللحض على الخضوع لطاعته، والسير على منهجه، ولما في الاسم الموصول من تشويق وإثارة، فالنفس عند سماعها لتلك الجملة يتحرك شعورها، وتعنو حواسها لهذا القادر العظيم الذي ملك كل شيء، فتبحث عن مظان قدرته، وتتأمل في ملكه وصنعته، فتهتدي إليه – سبحانه – وفي ذلك تمهيد وتوطئة للنفس لسماع تفصيل ما بعده"(٢).
- اشتملت تلك الجملة الكنائية مع إيجازها على صورتين من صور المجاز المرسل، مع اختلاف العلاقة، الأولى : في لفظ (نفس) لعلاقة الجزئية، حيث أطلق الجزء، وأريد به الكل : الجسم والذات، ولا يخفى سر التعبير بالجزء في ظل هذا المقام، وذلك لمزيد اختصاصه بزوال الحياة، ومفارقة الروح للجسد، ومن هنا عبر ربنا – سبحانه – في كتابه بهذا الجزء في أكثر من موطن في سياق التأكيد على زوال الحياة بالموت، قال – جل شأنه–: {كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ} (٣)، والموطن الثاني من المجاز ما جاء في قوله (بيده) وعلاقته (السببية)؛ حيث أطلق السبب (اليد)، وأريد بها القدرة، بقرينة الاستحالة، وذلك لأن "القدرة أكثر ما يظهر سلطانها في اليد، وبها يكون

(١) بناء الجملة في الحديث النبوي الشريف في الصحيحين، د / عودة خليل عودة: ٦٦٢، دار البشير – الأردن – ط الثانية – ١٤١٤هـ – ١٩٩٤م.

(٢) قطوف من البلاغة العربية، د / عبد الحليم محمد شادي: ٤٧، كلية اللغة العربية بإيتاي البارود، ١٤٢٧ هـ – ٢٠٠٧ م.

(٣) سورة آل عمران جزء من الآية رقم: ١٨٥، وسورة الأنبياء: ٣٥، وسورة العنكبوت: ٥٧.

البطش، والأخذ، والدفع، والمنع، والجذب، والضرب، والقطع، وغير ذلك من الأفاعيل التي تخبر فضل إخبار عن وجود القدرة، وتنبئ عن مكانها"[١].

- كما يتبدي من خلال إضافة (النفس) إلى ضميره (ﷺ) مدى صدقه ويقينه، وغاية تسليمه وتفويضه لربه – سبحانه – وأن المعنى يسيطر على جميع جوانحه، ويفيض على قلبه ومشاعره، تناغما مع عظيم إحساسه بخطر الديون، ورغبته القوية في عدم انزلاق أفراد أمته نحوها إلا في أضيق الحدود والأحوال.
- كما يظهر من خلال الحديث مدى التناسب والتناغم بين تلك الصيغة من القسم، والتي آثرها النبي (ﷺ) في بيانه، وبين المقام، فالسياق يتحدث – كما سيتضح بعد – عن هذا الشهيد الذي نال حظه من الشهادة ثلاث مرات، ولكن الدَّين الذي في رقبته ما زال حاجزا له عن دخول الجنة حتى يُقضَي عنه، فالمقام فيه صورة الموت شاخصة، وبسطة الهيمنة والقدرة ظاهرة ؛ حيث حجب هذا الشهيد عن دخول الجنة مع عظيم ثوابه، والتعبير بتلك الصيغة من القسم فيه – بلاشك – غاية التناسب مع هذا المعنى الذي يقصده (ﷺ) وهو التحذير من الدين، والتكاسل في قضائه، أو الرغبة في عدم سداده، ولعل هذا ما يتفق مع ما أشار إليه فضيلة أستاذنا الدكتور/ محمد أبو موسى في تعليقه على تلك الصيغة بقوله: "إن القسم في هذه الجملة قسم بالذي نفسه بيده، وهو قسم يستحضر الموت وما بعد الموت، وانقطاع العمل، وفوات الفرصة، ومواجهة ما لا سبيل إلى التخلص منه، ولذلك – غالبا – ما يقع بعد هذا النوع من القسم معنى يتعلق بالآخرة، وبالأمر المحذور المخوف"[٢].

وبعد أن استشارت جملة القسم النفوس، وشدت انتباهها، وأضفت على المقام تشويقا بما تحمله من إبهام وغموض لمعرفة المقسم عليه، نراه (ﷺ)

(١) أسرار البلاغة: لعبد القاهر الجرجاني: ٣٩٥، ت: محمود محمد شاكر، مطبعة المدني، القاهرة – ط أولى – ١٤١٢هـ – ١٩٩١م.
(٢) شرح أحاديث من صحيح البخاري: ٧٥٤، ٧٥٥.

يتبعها بلون آخر من ألوان الإثارة والتشويق، فيجعل المقسم عليه في صورة أسلوب شرط بكل اللبنات المكونة له، وكأن جوابه (ﷺ) على سؤال الرجل مبني على التدرج والتصعيد في البيان، والارتقاء بألوان التشويق، فالقسم تلاه الشرط، وهو المقسم عليه، والشرط تلاه فعل الشرط، وهذا كله ينادي على جواب الشرط بالحضور والذكر، وكأن لغة بيانه (ﷺ) حلقات يُسلم بعضها بعضًا، مع أن بناء الحديث نَفَسٌ واحد لا يتم معناه إلا بالوصول إلى آخر كلمة منه، وهذا – بلاشك – من السبك الجيد للكلام، وصولًا إلى الهدف الأسمى منه، وهو التحذير من الدين، وإلا لقال (ﷺ) مباشرة: (الدين يمنع من قُتِل في سبيل الله من دخول الجنة)، ولكن فرق كبير بين تلك الجملة التقريرية، وبين ما نطق به بيان النبوة، بما حفل به النظم الشريف من ألوان الإثارة والتشويق، والتي تضمنت في طياتها الكثير من معاني الردع، والزجر، والتنبيه على خطورة المعنى الأم في الحديث، والذي دار بناؤه حوله .

وقد ساق النبي (ﷺ) جملة المقسم عليه في ثوب الشرط الذي أداته (لو) في قوله (لو أن رجلا قتل في سبيل الله ..).

ومعلوم أن (لو) تستخدم للشرط في الماضي، مع القطع بانتفائه، فيترتب على ذلك انتفاء الجزاء، مع إمكان وقوع الجزاء لو وجد الشرط، ويجب أن تكون جملتاها فعليتين ماضويتين[1]، وكان لإيثاره (ﷺ) لتلك الأداة الأثر الواضح في إبراز مراده؛ لأن الحديث مبني على الافتراض لتلك الصورة المستحيلة[2]، وهي استشهاد من قتل في سبيل الله، وإحياؤه مرة بعد مرة، ثلاث مرات، ومع افتراض وقوعها مع استحالتها، ما نال هذا الشهيد الجنة حتى يقضي عنه دينه، كما أن التعبير بـ (لو) بجرسها الخاطف، وبمقطعها الصوتي القصير ذي اللهجة الحاسمة، لما تنتهي به من ضم الشفتين واستدارتهما، مما

(١) ينظر: الكافي في علوم البلاغة (المعاني والبيان والبديع)، د/ عيسى على العاكوب، أ/ على سعد الشيتوي: ١٩٦، دار الكتب الوطنية ببنغازي، ط ١، ١٩٩٣م.

(٢) هذه الاستحالة بالنسبة لعقولنا القاصرة ؛ إذ لا شيء مستحيل على الله تعالى.

يتناسب مع حالة النبي (ﷺ) النفسية وما يعتريه من القلق والخوف والشفقة على أمته، وما أكثر ما تستدار الشفتان وتضمان في مواقف الهم والحزن.

واتساقًا مع هذا المقام الراعد بالتهديد والتخويف يحذف فعل الشرط في لغة بيانه (ﷺ)، وتقديره : لو ثبت أن رجلا، وقد جاء هذا الحذف في غاية المناسبة للمقام، فمعلوم أن الكلام يطوي منه ما هو بين وظاهر في مقام التهديد والإرعاد، تركيزًا على ما هو أهم في السياق.

ثم أتبع النبي (ﷺ) أداة الشرط مؤكدا نظم بيانه بـ (أنَّ)، وهذا التأكيد ليس مراعاة لحال المخاطب من إقرار أو إنكار، فالرجل ليس منكرًا، بل هو طالب للإيضاح والاستبيان، وإنما يرجع هذا التأكيد إلى رغبته (ﷺ) الشديدة في غرس هذا المعنى في النفوس ؛ نظرا لجلال مضمونه وخطورته، وكأن النبي (ﷺ) يأخذ بأيدي هذه الأمة عبر هذا التوكيد، وما حفل به النظم من عناصر التشويق إلى البعد كل البعد عما هو بصدد التحذير منه.

ثم يضفي النبي (ﷺ) على المسند إليه (رجلا) المهابة والتعظيم من خلال تنكيره، فقد نال هذا الرجل درجة عظيمة، ومنزلة كبيرة عند الله، يستحق من خلالها أن يفوز بالجنة، بل بأعلى درجاتها ؛ لأنه كما هيأ هذا التنكير (قتل في سبيل الله)، فما أعظم منزلته، وما أجل ثوابه، والجملة السابقة كناية عن صفة، وهي: استشهاده في سبيل الله، وهي من الكنايات الدارجة في كتاب الله، قال تعالى: { وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ أَمْوَٰتًۢا }[1]، وقال -جل شأنه -: {وَٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٤﴾}[2]، وغير ذلك من الآيات، ولعل في إيثار التعبير بأسلوب تلك الكناية في نظم الحديث دون التصريح: لو أن رجلا استشهد في سبيل الله، لما في التعبير الكنائي في ظل هذا المقام من التبشيع لملاقاة العدو، وعظم ما تعرض له هذا الرجل، ومع هذا لم يشفع له، فالقتل:

(١)سورة آل عمران، جزء من آية رقم : ١٦٩
(٢) سورة محمد، الآية رقم : ٤.

عبارة عن إعدام الحياة بإزهاق الروح، وهو خاص بالنفس الإنسانية، وإذا استخدم في غيرها فلمعنى صارت به في حكم النفس الإنسانية، والفرق بينه وبين الموت: أن الموت ينفي الحياة مع سلامة البنية، ولابد في القتل من انتقاص البنية [1].

ويُصعِّد من معاني الحسرة على فوات هذا الثواب العظيم الذي يستحقه هذا الشهيد مراعاة هذا القيد (قتل في سبيل الله)، مع استحضار اسم الجلالة العلم على الذات المقدسة، والجامع لكل أسمائه وصفاته، مما يضفى مزيدا من الإجلال والتعظيم لهذا الرجل، ولكن هيهات أن ينال شيئا من ثواب عمله العظيم في ظل حبسه بهذا الدين اللعين .

وإذا كان الحديث محل الدراسة عبر باللفظ المكني به، دون التصريح، فقد جاء التعبير في حديث آخر باللفظ الصريح (الشهيد)، فعن عبد الله بن عمرو بن العاص أن رسول الله (ﷺ) قال : ((يغفر للشهيد كل ذنب إلا الدين)) [2]، مع اتفاق الحديثين في المعنى الأم : وهو التحذير من الدين .

والسؤال : لماذا آثر بيان النبوة التعبير بـ (قتل في سبيل الله) مكنيا به في سياق الحديث محل الدراسة؟، ولماذا آثر التصريح باللفظ المكني عنه (الشهيد) في الحديث الآخر؟

والإجابة تتضح من خلال مراعاة سياق كل حديث، والمقام الذي ورد فيه كل لفظ، فعندما كان النبي الكريم في معرض الحديث عن التشديد في شأن الدين بدليل جملة (ماذا نزل من التشديد)، والتي كانت قطب ورحى الحديث

(١) ينظر : الفروق اللغوية لأبي هلال العسكري : ٨٣، ٨٤، منشورات : محمد على بيضون – دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان – الطبعة الأولى – ١٤٢١ هـ – ٢٠٠٠م.

(٢) صحيح مسلم، كتاب: الإمارة، باب: من قتل في سبيل الله كفرت خطاياه إلا الدين، رقم: (١٨٨٦)، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت.

ومحوره العام، آثر التعبير بلفظ المكني به، لما فيه من إظهار التبشيع لفعل القتل، وإن كان في سبيل الله، ومع ذلك لم يشفع ذلك لهذا الشهيد، وعندما كان (ﷺ) في معرض الحديث عن ثواب الشهيد وما أعده الله له من جزاء، صرَّح نظمه وبيانه بهذا اللفظ المحبب الذي تتشوق وتهفو إليه النفوس المؤمنة، تناغما مع ما أعده الله له من ثواب عظيم، ومن هنا قذف لسانه (ﷺ) بالفعل (يغفر) وجعله في صدر بيانه، دون : الشهيد يغفر له ...؛ لأنه في معرض الحديث عن ثواب الشهيد وجزائه .

ويتبين من خلال ذلك دقة أصحاب كتب الحديث، حيث عنون النسائي – رحمه الله – للحديث الأول بباب (التغليظ في الدين)، بينما عنون الإمام مسلم في صحيحه للحديث الآخر بباب (من قتل في سبيل الله) وكأنهم – رحمهم الله – التقطوا الفكرة الأم في كل حديث، وجعلوها عنوانا لبابه، وهذا فيه من الدقة والاجتهاد ما فيه، فما أعظم هؤلاء الأعلام في دنيا الناس، وبئس هؤلاء الرويبضة والأقزام الذين يحاربونهم كل يوم، ويشككون في السنة النبوية وانظر وتأمل !!

وتتكاثف خطورة الدين، وشدة حسرة هذا الرجل الذي قتل في سبيل الله من خلال تلك القيود التي تلت جملة الوصف: (قتل في سبيل الله)، وتلك من أجل النعم، وتتوالى النعم، تأمل: (ثم أحيي)، والحياة هنا ليست من أجل الحياة، بل من أجل الاستشهاد في سبيل الله مرة ثانية، وتلك نعمة ثانية، وقد نالها بالفعل (ثم قتل)، وتلك نعمة أخرى، (ثم أحيي ثم قتل)، وتلك نعمة مضافة لسابقتها، وهذا يعني أن فضله عظيم، وثوابه جزيل لا يعد ولا يحصى، حيث فاض بروحه، وجاد بنفسه، ثلاث مرات، قتل في سبيل الله .. ثم قتل ... ثم قتل، كل هذا لم يشفع له أن ينال الجنة وثواب الشهادة، وهو عليه دين، فبئسه دينٌ كان، وياله من دين لعين !!

وتتجلى بلاغة استثماره (ﷺ) لحرف العطف (ثم) في العطف بين تلك الأفعال (قتل في سبيل الله ثم أحيي ثم قتل ثم أحيي ثم قتل)، وتكراره أربع

مرات، حيث اتخذها مطية في تحريك الزمن وطي تلك الأحداث العظيمة، والتي صحب كل حدث منها نعمة جديدة، فكان هذا الحرف خير وسيلة للإبانة عن عظم تلك الأحداث، وكأن كل حدث يتلوه حدث أعظم، وغير متوقع، ويستوجب نعمة أجل وأعظم، ومع ذلك حُرم هذا الشهيد مع كثرة ثوابه، وما ذاك إلا لأنه تعيس الحظ، عديم الخير بسبب هذا الدين اللعين.

ولانعدم أن يراد بهذا الحرف حقيقته اللغوية من الدلالة على الترتيب مع التراخي الزمني، وكأن هذا الرجل عقب استشهاده كل مرة تتطلع نفسه وتشتاق مرة أخرى لتنال حظها من الشهادة مرة تلو مرة، ومع ذلك تحرم تلك النفس المفعمة بالإيمان والفيَّاضة بالخير من ثوابها كل هذا من عطاء الحرف (ثم) واقرأ الحديث مستبدلا هذا الحرف بغيره من حروف العطف كالفاء مثلا، وستجد بنفسك فوات هذه المعاني وغيرها، فهذا الحرف كما يقول د / محمد الأمين الخضري: "أداة رقيقة هامسة، تنساب معها المعاني إلى النفس في لطف، وتحرك الزمن في هدوء، وهذا معنى يصاحبها في حقيقتها ومجازها"(١).

وتتبدى بلاغة النبوة في التعبير بما لم يسمَّ فاعله في تلك الأفعال (قتل) و(أحيي)؛ لأن القصد هو التركيز على تلك الأحداث، وليس القصد بيان فاعلها، ومن هنا أوجز الكلام، وحذف منه الفضول، وما لا تتعلق به فائدة.

كما تتجلى بلاغة الطباق الواقع بين هذين الفعلين (قتل) و(أحيي) مما يضفى على المعنى وضوحًا، ويزيد من رسوخه وتأكيده في الأذهان، كما يبرز تقلب هذا الرجل بين تلك النعم مرة تلو أخرى.

كل هذا، وجواب الشرط لما يأت بعد، والثواب كثير، وحظ الرجل عظيم، والنفوس يزداد شوقها للجواب وتترقب، وهي تستشعر أنه من جنس الخير والثواب، وهل جزاء الإحسان إلا الإحسان؟ ولكنها تصادم وتفاجئ بتلك العقبة

(١) من أسرار حروف العطف في الذكر الحكيم (الفاء وثم) للدكتور / محمد الأمين الخضري: ٢٣٠، مكتبة وهبة – القاهرة – الطبعة الثانية – ١٤٢٧ هـ – ٢٠٠٧ م.

الكؤودة، والتي لم تكن في حسبان هذا الشهيد، الذي برهن على قوة إيمانه، وأنه أهل لأعلى مراتب الجنان بجدارة، ولكن هيهات، فقد لقى ربه (وعليه دين).

والواو في بدء تلك الجملة هي واو الحال، وبئس هي من واو، جاءت لتفصل بين حال هذا الرجل ومآله المتوقع له، وهو دخول الجنة، بل ما هو أعظم من ذلك بكثير فمن ثواب الشهيد ما جاء عن رسول الله (ﷺ) بقوله: "أرواح الشهداء عند الله يوم القيامة في حواصل طير خضر لها قناديل معلقة بالعرش، تسرح في أي الجنة شاءوا، ثم ترجع إلى قناديلها، فيشرف عليهم ربهم فيقول : ألكم حاجة تريدون شيئا، فيقولون: لا، ألا نرجع إلى الدنيا فنقتل مرة أخرى"(١)، بل إن الشهيد يمتد ثواب شهادته إلى أهله، فعن أبي الدرداء (رضي الله عنه) أن النبي (ﷺ) قال: " يَشفعُ الشهيدُ في سبعينَ من أهلِ بيتهِ"(٢)، تلك الجملة الحالية هي التي حجزت هذا الشهيد عن ذلك الثواب العظيم، وفي هذا غاية التنفير من شأن هذا الدين اللعين وعواقبه.

وقد اتسم بناء تلك الجملة الحالية بما ينبئ عن التقرير والتوكيد، حيث تقدم المسند (عليه) على المسند إليه (دين)، وما ذاك إلا لأن غرض الكلام منصب على بيان حال هذا الرجل، وليس منصبا على الدين ذاته، فقُدِّم في الكلام ما هو أهم وأولى.

كما كان التعبير بحرف الاستعلاء فيه ما يوحي بعظم تلك الجناية التي لحقت به، ونلمح منه معنى القهر الذي أحاطه، وكأن دينه مستبد به،

(١) مسند الإمام الدارمي، أبو محمد عبد الله بن عبد الرحمن الدارمي: ٢ / ٧٨٩، حققه: د / مرزوق بن هياس آل مرزوق الزهراني، ط ١، ١٤٣٦ هـ – ٢٠١٥ م .

(٢) سنن أبي داود، أول كتاب الجهاد، باب في الشهيد يشفع: ٤ / ١٧٦، رقم : (٢٥٢٢)، قال الشيخ الألباني: صحيح تحقيق: شعَيب الأرناؤوط – محَمَّد كامِل قره بللي، الناشر: دار الرسالة العالمية، الطبعة: الأولى، ١٤٣٠ هـ – ٢٠٠٩ م.

ويستعليه ويقهره، وهذا الحال لا ينفك عنه ولا يزول كما أوحى بذلك التعبير بالجملة الاسمية بما تفيده من معاني الثبوت والدوام.

وتنكير (دين) يوحي بالعموم والشمول، أي سواء أكان دينا صغيرا أم كبيرا، ولا نعدم أن يكون من إيحاءات هذا التنكير إفادة معنى التهويل والتشنيع والتنفير من شأن هذا الدين، وهذا ينصب على الدين عموما صغيره وكبيره، وبخاصة في ظل هذا السياق .

وبعد أن أثار النبي (ﷺ) النفوس إلى معرفة الجواب بما أحدثه من تشويق بأسلوب القسم، وما تلاه من أسلوب الشرط الذي طال بناء نظمه بما تداخله من جمل معطوفة ذيلت بجملة الحال (وعليه دين) جاء الجواب: (ما دخل الجنة) مقيدا هو الآخر بقوله : (حتى يقضي دينه) وبهذا السبك منح النبي (ﷺ) الأسلوب تماسكا فنيا، وتسلسلا فكريا، يعين على التلبية والإذعان لمراده، وهو التحذير من شأن الدين.

وجواب الشرط (ما دخل الجنة) قاطع وحاسم، وهو أشبه بالصاعقة التي أصابت هذا الشهيد، وأرهبت نفوس السامعين، بما تقطر به من هول وشدة، و(ما) النافية بصوتها الممدود يشي بامتداد صدى هذا النفي حتى سمعه كل الحاضرين لبيانه (ﷺ)، ومن بعدهم كل قارئ وسامع له، فضلا عما أفاده هذا النفي من إضفاء عنصر التشويق في النفوس، وذلك لأن " النفس تتطلع عند وقوع النفي إلى معرفة أسبابه، وتشغل بالبحث في مضمون الجملة التي وقع فيها النفي، وهذا من شأنه تأكيد المعنى وتمكينه"[1]، كما كان للفعل الماضي الواقع عقب هذا النفي (دخل) دلالته في التأكيد على القطع والتحقيق، لعدم تحقق ذلك الدخول.

(١) التشويق في الحديث النبوي، طرقه وأغراضه، د / بسيوني عبد الفتاح فيود : ١١٣، ط الحسين الإسلامية، الطبعة الأولى، ١٤٢٤ هـ – ٢٠٠٣ م .

و(أل) في (الجنة) للعهد الذهني ؛ لأنها معروفة، وهي جنة الآخرة، والتي أخبرنا القرآن الكريم عنها وشوقنا إليها، كما أبان النبي (ﷺ) عن أوصافها في سنته، وهي علم جامع لكل أصنافها وكافة درجاتها ونعيمها، والتعبير بها في ظل هذا السياق يثير مشاعر الرفض لكل ألوان الدين وأشكاله وصنوفه ؛ لأن العبد إذا تذكر فوات كل ذلك إذا استدان، ولم يوف ذلك الدين قبل موته كان ذلك أدعى له أن يفكر مليا، ويراجع نفسه مرة تلو مرة في عدم اللجوء إليه إلا في أضيق الأحوال، وإذا ما اضطر إليه بادر بسداده في أول فرصة تواتيه .

والجملة السابقة (ما دخل الجنة) من الغيبيات التي أُوحيت للنبي (ﷺ)؛ لأنه لا يجزم بعدم دخول الجنة لأحد من تلقاء نفسه، كما أن سياق الحديث يؤكد أنه (ﷺ) لم يكن على علم بهذا الحكم من قبل، وقد بدا ذلك من قول الصحابي (فرفع رأسه إلى السماء)، وهذا من التناسب الخفي بين ألفاظ الحديث ومبانيه.

وبعد هذا التيئيس القائم تأتي بارقة الأمل، ونافذة العبور إلى ما حرم منه هذا الشهيد بسبب دينه، وقد تأتَّى ذلك من وراء التعبير بحرف الغائية (حتى يقضي دينه)، فهي معبرة ونافذة لفتح أبواب الرحمة، واستنجاد لهذا الشهيد؛ لينال ثواب شهادته.

والتعبير بالفعل (يقضي) لما لم يسم فاعله مما يفتح باب النجدة والإغاثة من أي شخص كان، ولكل من يتأتىَّ منه قضاء ذلك الدين اللعين، من قريب أو بعيد، من أهله وغير أهله، من ورثته أو غيرهم، وتلك دعوة للتراحم بين المسلمين واستبحاد بعضهم بعضا، وبخاصة أهل الدَّيْنِ فيهم . وفي رواية بالبناء للمعلوم (حَتَّى يَقْضِيَ دَيْنَهُ)[1]، قال الطيبي: يجوز أن يكون على بناء

(١) سنن ابن ماجه، أبواب الصدقات، بَابُ: مَنْ ادَّانَ دَيْنًا وَهُوَ يَنْوِي قَضَاءَهُ، ٣/٤٨٥، حديث رقم : ٢٤٠٩، تحقيق: شعيب الأرناؤوط – وآخرون، دار الرسالة العالمية، الطبعة: الأولى، ١٤٣٠ هـ – ٢٠٠٩ م

المفعول وعلى بناء الفاعل، وحينئذ يحتمل أن يراد يقضي ورثته، فحذف المضاف، وأسند الفعل إلى المضاف إليه، وأن يراد يقضي المديونُ يوم الحساب دينه "[1].

وهذا القضاء يوم الحساب ليس بالدينار والدرهم، بل بالحسنات والسيئات، كما أبان عنه حديث آخر في شأن الديون، فعن عمر قال : قال رسول الله (ﷺ): ((**مَنْ مَاتَ وَعَلَيْهِ دِينَارٌ أَوْ دِرْهَمٌ قُضِيَ مِنْ حَسَنَاتِهِ، لَيْسَ ثَمَّ دِينَارٌ وَلا دِرْهَمٌ**)) [2]، وهذا يعني وجود مقاصة بين هذا المدين ودائنه، ولكن ليس بالدينار والدرهم، بل بالحسنات والسيئات، وما أحوج الإنسان في هذا اليوم العصيب إلى حسنة واحدة، وقد كان ابن ماجه دقيقًا حين عنون لهذا الحديث بـ (باب الحبس في الدين والملازمة)[3]، دلالة على ملازمة الدين لصاحبه حتى يوم القيامة، ما لم يقض عنه في الدنيا، وأنه لا ينفك عنه حتى يُقضى فيه بالحسنات والسيئات.

والتعبير بحرف المجاوزة في (حتى يقضي عنه دينه) يوحي بثقل هذا الدين، وأن هذا الشهيد في أمس الحاجة لمن يتحمله عنه، ويزيح عنه ما هو فيه من حَجْبٍ ومنع لما ينتظره من ثواب عظيم .

والتعبير بـ (دينه) من قبيل وضع المظهر موضع المضمر، إذ مقتضى الظاهر، (حتى يقضي عنه) لسبق ذكر الدين في جملة الحال (وعليه دين)، ولعل السر في هذا العدول، هو ما في الاسم الظاهر من الدلالة على الاهتمام بمعناه؛ تأكيدا له وتقريرا في النفوس، ولأن المعنى في الحديث منصب على هذا الدين اللعين، ولولاه ما حبس هذا الشهيد، ولذا كان من البلاغة الاهتمام به، وإعادته مرة ثانية في اللفظ، وما ذاك إلا لأن "قدرا كبيرا من التأثير يظل

---

(١) مرقاة المفاتيح : ٥ / ١٩٦٥ .

(٢) سنن ابن ماجه، أَبْوَابُ الصَّدَقَاتِ، بَابُ: مَنْ تَرَكَ دَيْنًا أَوْ ضَيَاعًا فَعَلَى اللَّهِ وَعَلَى رَسُولِهِ: ٣/ ٤٩٠، رقم:(٢٤١٤).

(٣) السابق نفسه.

الاسم الظاهر محتفظا به، ولا يستطيع الضمير حمله نيابة عنه؛ لأنها تتولد حين يقرع اللفظ السمع بجرسه، وارتباطاته المختلفة جد الاختلاف والتي اكتسبها في قصته الطويلة مع الكلمات، والأحداث، والمواقف"[1].

وإذا كان النبي (ﷺ) بارعًا في استهلال إجابته على هذا السائل بأسلوب القسم، بما فيه من لفت، وإثارة وتنبيه على خطورة ما يقصده من معنى، فإنه لم يكن أقل براعة في ختام إجابته عليه، وفي هذا أبلغ حث للنفوس إذا ما اضطرتها ظروف الحياة إلى الاستدانة إلى الإسراع في قضاء هذا الدين، فإذا كان هذا حال من نال حظ الشهادة في سبيل الله ثلاث مرات، فكيف بحال المدين الذي صحبته ذنوبه ومعاصيه حتى لقى ربه، أو بحال المدين الذي يتنصل في أداء ما عليه من ديون، ويكفيه تهديدًا ووعيدًا قول رسولنا الكريم: **((أَيُّمَا رَجُلٍ يَدِينُ دَيْنًا وَهُوَ مُجْمِعٌ أَنْ لا يُوَفِّيَهُ إِيَّاهُ لَقِيَ اللَّهَ سَارِقًا))**[2].

❁❁❁❁❁

(١) خصائص التراكيب، دراسة تحليلية لمسائل علم المعاني، د / محمد أبو موسى : ٢٤٨، مكتبة وهبة، ط السادسة، ١٤٢٥ هـ – ٢٠٠٤ م .

(٢) سنن ابن ماجه، أَبْوَابُ: الصَّدَقَاتِ، بَابُ: مَنْ ادَّانَ دَيْنًا لَمْ يَنْوِ قَضَاءَهُ، رقم : (٢٤١٠)

المقام الثاني

الدين لا تكفِّره الشهادة في سبيل الله مع عظمة ثوابها

عَنْ أَبِي قَتَادَةَ[1] أنه قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ (ﷺ)، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَرَأَيْتَ إِنْ قُتِلْتُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ صَابِرًا مُحْتَسِبًا مُقْبِلًا غَيْرَ مُدْبِرٍ، أَيُكَفِّرُ اللَّهُ عَنِّي خَطَايَايَ؟ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ (ﷺ): «نَعَمْ»، فَلَمَّا أَدْبَرَ الرَّجُلُ، نَادَاهُ، فَقَالَ لَهُ: «كَيْفَ قُلْتَ؟» فَأَعَادَ عَلَيْهِ قَوْلَهُ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ (ﷺ): «نَعَمْ، إِلَّا الدَّيْنَ، كَذَلِكَ قَالَ لِي جِبْرِيلُ -عَلَيْهِ السَّلَامُ»[2].

هذا النبع النبوي الذي بين أيدينا تنوعت فيه طعوم البيان، وتعددت فيه مصادره، ففيه كلام لراوي الحديث سيدنا أبي قتادة، وكلام لهذا الرجل الذي جاء يسأل رسول الله (ﷺ)، ومنه كان بيانه (ﷺ) من خلال الإجابة عليه، "وهذا الضرب من الكلام يخالف الكلام الذي يخرج من تحت لسان واحد؛ لأنك ترى فيه أنفاسا مختلفة، وتسمع ألسنة مختلفة، وتذوق طعوما للبيان مختلفة"[3].

وتبدأ لغة هذا الحديث بما حكاه سيدنا أبو قتادة عن مجيء هذا الرجل الذي جاء يسأل رسول الله (ﷺ) بقوله : جاء رجل إلى رسول الله (ﷺ) فقال يا

---

(١) هو الْحَارِث بن ربعيّ الْأَنْصَارِيّ أَبُو قَتَادَة، فَارس رَسُول الله (ﷺ) اخْتلف فِي شُهُوده بَدْرًا، وَشهد أحدا، وَمَا بعْدهَا من الْمشَاهد، روى عَنهُ ابْنه عبد الله، وَأَبُو سعيد الْخُدْرِيّ، وَأَبُو سَلمَة بن عبد الرَّحْمَن، مَاتَ بِالْمَدِينَةِ سنة أَربع وَخمسين، وَقيل مَاتَ فِي خلَافَة عليّ بن أبي طَالب بِالْكُوفَةِ، وَكَانَ شهد مَعَه مشاهده كلهَا وَهُوَ ابْن سبعين سنة، وَهُوَ مِمَّن غلبت عَلَيْهِ كنيته، ينظر: الوافي بالوفيات، صلاح الدين الصفدي: (١١/١٨٥ – ١٨٦)، تحقيق: أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى، دار إحياء التراث – بيروت، ١٤٢٠هـ- ٢٠٠٠م.

(٢) سنن النسائي، كتاب: البيوع، باب: التغليظ في الدين، حديث رقم : (٤٦٨٤)، قال الشيخ الألباني: حسن.

(٣) شرح أحاديث من صحيح البخاري، د / محمد أبو موسى : ٣٠٠ .

رسول الله: أرأيت إن قتلت في سبيل الله صابرا محتسبا مقبلا غير مدبر أيكفر الله عني خطاياي ؟

ولم يحدد في كلامه اسم هذا الرجل ؛ لأنه لا يتعلق بذكره معرفة غرض بلاغي، أو إضافة ملامح جديدة، وقد أبان التعبير بالفعل (جاء) دون غيره من مترادفاته مثل : أتى، أو حضر – مثلا – عن شيء من حالة الرجل النفسية، وما يبدو عليه من لهفة السؤال، والرغبة في المعرفة، وانشغال باله بسؤال رسول الله (ﷺ) وبكيفية عرضه عليه، وهل ستكون الإجابة متوافقة مع ما ترتضيه نفسه أو تتغياه؟، كل هذا يقتضي التعبير بفعل المجيء، ونلمح لهفة الرجل وهو على تلك الحالة في مبادرته بالسؤال بقول الراوي (فقال) فبمجرد المجيء سأل رسول الله (ﷺ)، ثم نراه يستثمر الأسلوب الإنشائي (يا رسول الله)؛ لأنه بطبيعته هو المهييء لمخاطبة المشاعر والعواطف، كما أنه يضفي على المتلقي مزيدا من التنبيه والإصغاء وهذا ما يحتاجه من رسول الله، كما يؤثر في ندائه أداة النداء التي للبعيد، تكريما وتعظيما وتوقيرا منه للرسول (ﷺ).

واللافت للنظر في حال هذا الرجل أنه ما جاء ليسأل عن أجر الشهيد، فلعله لا يجهله؛ حيث سبق علمه به من رسول الله (ﷺ)، ولكن الذي يشغله هل ترقى الشهادة في سبيل الله أن تكفِّر كل خطاياه ؟

كما يتضح أيضا أنه لم يقذف بسؤاله في صدر بيانه، بحيث يقدم ما يشغل باله، فيكون بناء كلامه : أيكفر الله عني خطاياي إن قتلت ...؟

ولعل السر في ذلك أنه أردا أن يقدم العمل على الجزاء ؛وذلك لما في العمل من استحقاق الجزاء في مظنته.

وقد كان هذا الرجل دقيقا في بيانه؛ حيث بدا حريصا على أن يثير انتباه النبي (ﷺ)، ويشحذ ذهنه نحو المستفهم عنه، فمع أنه يقصد حقيقة الاستفهام المادية من طلب الفهم والاستيضاح والبيان من السامع إلا أنه أدخل همزة الاستفهام على فعل له عطاء خاص، وهو فعل الرؤيا وذلك في قوله: (أرأيت)

وهي هنا رؤية علمية بمعنى (أخبرني)، وقد جاء هذا الفعل معلقا عن العمل، بالاستفهام الواقع في جواب الشرط ؛ ولذلك لم يرد بعده مفعولاه[1]، ولعل السر في تعبير هذا الصحابي الجليل بهذا الفعل لما يتضمنه من استحضار صورة المستفهم عنه أمام العين، وكأنه حدث واقعي يرى ويشاهد بكل وسائل الرؤيا، وليس العين الباصرة فحسب، بل يتملاه العقل والخيال أيضا ؛ حتى يكون المسئول متتبعا لكل أبعاد الصورة بكافة تفاصيلها، ويرى ما يتخللها من دقائق وأسرار؛ وهذا مما يومئ إلى عظمة المستفهم عنه، وأهمية هذا المعنى في نفس المستفهِم.

كما تبدو دقته في إيثار أداة الشرط (إن)، ومعلوم أن الأصل فيها أن يعبر بها في كل ما يشك بوقوعه في المستقبل، فهل كان الرجل شاكا في وقوع فعل الشرط منه ؟ بالطبع كلا، فلماذا عبَّر بها إذن دون (إذا) والتي هي الأنسب لحاله، إذ الأصل فيها أن تستخدم في كل ما يقطع المتكلم بوقوعه في المستقبل، ولعل السر في تلك المغايرة أنه أراد أن يظهر قتله في سبيل الله بتلك الصورة العالية، من خلال ما أعقبها من قيود (صابرا محتسبا مقبلًا غير مدبر)، وهي صورة نادرة في ظنه قلما أن تكون من أحد، والذي يناسبها إذن التعبير بـ (إن)، وربما كان التعبير بها من إجراء الكلام على اعتقاد المخاطب[2]، لأن المخاطب، وهو رسول الله (ﷺ) غير حازم بوقوع الشرط، فساق المتكلم بيانه وفقا لما في نفس رسول الله (ﷺ) تأدبًا في مقامه.

والتعبير بفعل الشرط (قتلت) ماضيا مما يشعر برغبة الرجل في حصول الشرط؛ حتى إنه أبرزه في معرض الحاصل ؛ لأن الفعل الماضي بذاته يدل على التحقق والتثبت والقطع بوقوع الحدث، ومن هنا عدل الرجل

(١) ينظر : شرح المفصل لابن يعيش : ٣٣/٣، تحقيق : إيميل بديع يعقوب، دار الكتب العلمية – بيروت – ط ١ – ١٤٢٢ هـ – ٢٠٠١ م، وينظر : همع الهوامع للسيوطي: ٥٥٦/١، تحقيق : عبد المجيد عبد الحميد هنداوي، المكتبة التوفيقية – بدون تاريخ .
(٢) ينظر : الكافي في علوم البلاغة، صـ: ١٩٧.

عن الفعل المضارع إن (أقتل) وهو الأنسب لحاله، وهذا العدول من خروج الكلام على خلاف مقتضى الظاهر؛ تقريرا وتحقيقا لوقوع الفعل، و ذكر ابن الأثير فائدة ذلك العدول فقال: "إن الفعل الماضي إذا أخبر به عن الفعل المستقبل الذي لم يوجد بعد، كان ذلك أبلغ وآكد في تحقيق الفعل وإيجاده؛ لأن الفعل الماضي يعطي من المعنى أنه قد كان ووجد، وإنما يفعل ذلك إذا كان الفعل المستقبل من الأشياء العظيمة التي يستعظم وجودها"(١).

كما أن الرجل لم يكتف في بيانه بهذا العدول، بل أراد أن يظهر فعل الشرط (قتلت في سبيل الله) في أعلى درجاته، فكان من الممكن أن يقول: إن قتلت في سبيل الله أيكفر الله عني خطاياي ؟ ولكنه أطنب في سؤاله من خلال تلك القيود (صابرًا محتسبًا مقبلًا غير مدبر) والتي جعلها لبنات مهمة في فعل الشرط، وتوطئة لسؤاله، والقتل في سبيل الله يشمل كل ذلك، ولذلك كانت صيغة القرآن الكريم الدارجة في التعبير عنه {قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ}(٢) و {فَلْيُقَٰتِلْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ}(٣)، فالقتل في سبيل الله يعني: بذل كل شيء في سبيل نصرة الحق، والدفاع عن الدين، وهذا لا يقوم به إلا كل صابر، محتسب، مقبل غير مدبر، فلماذا وضع الرجل كل تلك القيود؟

أقول: إن تقييد المسند بتلك القيود الواقعة حالًا ؛ لغرض بلاغي وهو تربية الفائدة وتكثيرها، لأن الحكم – كما يقول البلاغيون – كلما زاد خصوصًا زاد غرابة، وكلما زاد غرابة إفادة (٤)، وتلك الفائدة هي أن الرجل أراد أن يصور

(١) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، المؤلف: ضياء الدين بن الأثير، نصر الله بن محمد : ٢ / ١٨٥، تحقيق: أحمد الحوفي، بدوي طبانة، الناشر: دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، الفجالة . القاهرة

(٢) سورة آل عمران :١٦٩، وسورة محمد :٤ .

(٣) سورة النساء، جزء من الآية :٧٤.

(٤) ينظر : الكافي في علوم البلاغة : ١٩٣ .

الشهادة في أعلى درجاتها، وأعظم منازلها، وبذلِ كل ما يحققها على أكمل وجوهها، ودفعِ كل ما يقلل من ثوابها، أو ينقص من أجرها .

فقوله (صابرا) قيد يؤكد به أنه بذل كل ما في وسعه في ساحة القتال، صابرًا على لأواء الحرب وشدة نكاية العدو .

وقوله (محتسبا) يؤكد مقصده من القتال، وهو طلب الأجر الأخروي من الله، بعيدا عن المراءاة وكل ما يحبط من ثواب شهادته، والمحتسب هو "المخلص لله تعالى، فإن قاتل لعصبية أو لغنيمة، أو لصيت، أو نحو ذلك فليس له هذا الثواب ولا غيره"(١)، وقوله (مقبلا) يؤكد به حرصه على الشهادة، ورفع الراية وملاقاة العدو مع شدة الإقدام، وبسالة المواجهة، ورباطة الجأش.

وقوله (غير مدبر) تأكيد لقوله: (مقبلا)، وهو من طباق السلب(٢)، والمعنى فيه كما في قوله – تعالى – { أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ } (٣)، وقولنا : " فعل ولم يترك" وهو "حال مؤكدة مقررة لما يرادفها، نحوُه في الصفة قولك : أمس الدابر لا يعود"(٤)، وقيل " لبيان كون الإقبال في جميع الأحوال، إذ قد يقبل مرة ويدبر مرة، فيصدق عليه أنه مقبل"(٥)، وفيه غاية المبالغة في شدة إقبال هذا

(١) السراج الوهاج في كشف مطالب مسلم بن الحجاج شرح مختصر صحيح مسلم للحافظ المنذري: ٤/ ٣٤٥، تحقيق : عبد الله بن إبراهيم الأنصاري، طبع هذا الكتاب على نفقة الشئون الدينية بدولة قطر– بدون .

(٢) طباق السلب : هو الجمع بين فعلي مصدر واحد، أحدهما مثبت، والآخر منفي، أو الجمع بين فعلين أحدهما أمر والآخر نهي ، ينظر : دراسات منهجية في علم البديع، د / الشحات محمد أبو ستيت : ٤٢، طبعة أولى –١٤١٤ هـ – ١٩٩٤ م، مع مراعاة أن المصدرين (مقبلا، ومدبر) ليس لفظهما واحدا، وإن كان معناهما واحدا، ولذلك جعلته من طباق السلب .

(٣) سورة النحل، جزء من آية رقم :٢١.

(٤) مرقاة المفاتيح : ٥ / ١٩٨٥ .

(٥) شرح الزرقاني على موطأ الإمام مالك، محمد بن عبد الباقي بن يوسف الزرقاني المصري الأزهري: ٣ / ٥٥، تحقيق: طه عبد الرءوف سعد، الناشر: مكتبة الثقافة=

الرجل على مواجهة العدو، وأنه لا يرهب شيئا من بأسه وعتاده، مستشعرًا بلسانه وقلبه أن قوة الله معه.

كما كان الرجل دقيقا في صياغة تلك القيود في ثوب الاسمية، وفي صيغة اسم الفاعل دلالة على الثبوت والدوام على تلك الأوصاف، ليؤكد رغبته في تحقيق تلك الشهادة في أعلى درجاتها وأعظم منازلها .

كما تبدو دقته أيضًا على مستوى ترتيب تلك المفردات، فقد ابتدأها بـ (صابرا)؛ لأن الصبر أهم عنصر في لقاء العدو، وقد يقاتل الرجل صابرا وليس محتسبا، وقد يقاتل صابرا ومحتسبا مع ما يعتريه من خوف وشدة رهبة من لقاء العدو ومواجهته، فدفع ذلك بقوله (مقبلا غير مدبر)، وفي هذا تصعيد وترق بالغ بالوصول بالشهادة إلى أعلى درجاتها .

كما أن قوله (صابرًا) و(محتسبا) من الأمور الباطنية، والتي تتعلق بالقلب ومدى إخلاص النفس وصدقها، بخلاف الإقبال في ساحة القتال فهو من الأمور الظاهرة، ولذا قدم الرجل ما هو آكد وأدل على صدقه وإخلاصه في تلك الشهادة.

ومن وجوه البلاغة التي اشتملت عليها تلك القيود – أيضًا – مراعاة النظير فيما بينها، حيث جاءت متناسبة ومتلائمة ومتناغمة فيما بينها، واستدعت كل كلمة منها جارتها آخذة بحجزها، متضامنة معها في الوصول إلى تحقيق المعنى في أكمل صورة وأدقها وأبينها لمراد قائلها .

ويتسق مع تناغم تلك القيود أنها جاءت مفصولة فيما بينها، وذلك مما يفيد اجتماعها في زمن واحد، دون تغاير أو استقلال، وهذا يتناسب مع دفقات تلك المعاني في نفس هذا السائل، ومدى سيطرتها على حسه وشعوره ؛ دلالة على صدقه البالغ في سؤاله، ولو فصل بينها بالواو لآذن باستقلال كل صفة، دون قصد اجتماعها مع الأخرى.

=الدينية – القاهرة، الطبعة: الأولى، ١٤٢٤هـ – ٢٠٠٣م.

وبعد تلك التوطئة التي قدمها الرجل بين يدي سؤاله ليؤسس من خلالها الإجابة عليه يأتي سؤاله: أيكفر الله عني خطاياي ؟ وقد جاء جوابا للشرط وذلك بعد أن تشوقت النفوس إليه، وتطلعت إلى معرفته، فضلا عما أضفاه على كلام السائل من قوة التماسك، وشدة الترابط، ومتانة الإحكام، حتى كأن بيانه مع ما تداخله من قيود كالكلمة الواحدة.

والاستفهام السابق في بيان الرجل على حقيقته، وهو مع ذلك لا يخلو من الكشف عن نفسيته، وما يعتريه من الخوف والقلق خشية أن تكون هذه الشهادة مع عِظمها لا تعدل تكفير خطاياه .

ومن هنا استحضر الرجل اسم الجلالة في صياغة سؤاله، مع إمكان التعبير به مضمرا؛ لسبق ذكره في قوله : (إن قتلت في سبيل الله)، وذلك تناسبا مع الرهبة التي في نفسه، والخوف الذي في قلبه، فاستحضر اسم الجلالة الأعظم، إيذانا بقدرته الغالبة وسلطانه القاهر، وأنه وحده القادر على تكفير كل خطاياه، ومن ثم عبر بحرف المجاوزة (عني) وقدمها في النظم على المفعول به ؛ تلبية لما ترجوه نفسه في دفع المجازاة بها، والمؤاخذة عليها، كما عبر بـ (خطاياي) بصيغة الجمع لإفادة العموم في رغبة الرجل في تكفيرها كلها سواء (ما يتعلق بحق الله، وما يتعلق بحق العباد)[1].

ويسعف النبي الكريم الرجل بالإجابة، ويبادر بطمأنته، وقد بدا ذلك المعنى من خلال تعبير سيدنا أبي قتادة بقوله : فقال رسول الله (ﷺ) نعم، بما تنبئ به الفاء التي اقترنت بفعل القول من معاني السرعة والتعقيب، وكانت إجابته (ﷺ) واضحة وحاسمة بـ (نعم) وهي تستعمل إما "لتصديق مخبر، أو

(١) دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، محمد علي بن محمد بن علان بن إبراهيم البكري الصديقي الشافعي: ٢ / ٥٣٩، اعتنى بها: خليل مأمون شيحا، الناشر: دار المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت – لبنان، الطبعة: الرابعة، ١٤٢٥ هـ – ٢٠٠٤ م.

إعلام مستخبر، أو وعد طالب "[1]، وقد قُصد بها في سياق الحديث إعلام هذا الرجل، وكان اقتصار النبي (ﷺ) على هذا الحرف في إجابته في غاية الإيجاز، تناسبًا مع المقام والرغبة في إسعاف الرجل، ومراعاة حاله في تلهفه إلى معرفة الجواب، فضلا عما أفاده هذا الحذف من تصفية العبارة، ونفي الفضول عنها، والتقدير: نعم يكفر الله عنك خطاياك.

وتعود لغة البيان مرة ثانية على لسان راوي الحديث سيدنا أبي قتادة، ليكشف عن جزء مهم في الحديث، وهو ما استدركه النبي (ﷺ) في إجابته على هذا الرجل، فيقول: (فلما أدبر الرجل ناداه فقال له : كيف قلت ؟ فأعاد عليه قوله، فقال له رسول الله (ﷺ) نعم إلا الدين، كذلك قال لي جبريل".

وهذا البيان اختلط فيه كلام الراوي بلغة النبي (ﷺ)، وكأنه قصد إلى أن يجرى بيانه (ﷺ) على لسانه، وأن تمتزج لغته بلغته (ﷺ)، وتلك سمة بارزة في كلام الرواة؛ رغبة في أن ينالوا هذا الشرف العظيم، وتناسبا مع حكاية السرد القصصي وتوالي الأحداث في الحديث .

وقد اختصرت لغة هذا البيان المشهد واكتنزته، وأعان على ذلك تكرار فعل القول وانتشاره في تلك الفقرة السابقة، تأمل: (فقال له، كيف قلت ؟، فأعاد عليه قوله، فقال له النبي (ﷺ))، وهي أفعال من شأنها أن توجز المشهد وتختصره، مع ما يتخللها من تكرار حرف الفاء، وقد اتخذها أبو قتادة مطيته، لسرد تلك الأحداث، مع تتابعها وتعاقبها وترتبها على بعضها، والفاء حين تقترن بفعل القول في باب المحاورة إنما يُرمي بها إلى إبراز أن هذا القول ما كان له أن يقال إلا لما سبقه من القول[2]، مما يكشف كل تفاصيل هذه الأحداث في سرعة بالغة؛ إبرازًا للمعنى الجديد والأهم، وتسليطا للضوء عليه .

(١) الجنى الداني في تذوق المعاني : ٥٠٦ .
(٢) ينظر: فقه بيان النبوة منهجا وحركة : ٣٠، ٣١ .

كما تبدو دقته وحرصه على إشباع هذا الجزء من المعنى بمزيد من الأهمية في تعبيره بـ (لما) التعليقية، وكأنه أراد أن يلفت السامع إلى هذا المعنى، فوضع هذا الحرف بما يقتضيه من معنى الشرط [١]، وكأنه طرقة تنبيه، لما فيه من معنى الشرط ؛ ليستثير بها النفوس مرة ثانية، وبخاصة أنها اطمأنت أن الرجل أُسعف بالإجابة، فلم تعد مشغولة بالموقف، فجاءت (لما)، وكأنها طرقة تنبيه جديدة؛ إيذانًا بما وراءها من حدث طارئ جديد، وأَسْقِطْ هذا الحرف من التعبير، واقرأْ: فأدبر الرجل ... لتدرك هذا.

وفي تعبيره بالفعل (أدبر)، دون مثيلاته اللغوية مثل: انصرف، أو ولَّى، أو ذهب، أو غير ذلك، لما في التعبير بهذا الفعل من الدلالة على بُعدِ الرجل، وخِفَّةِ حركته، مما يشي بنفسيته الفرحة من جواب رسول الله (ﷺ)، وموافقته لما كانت تأمله نفسُه وتتغيَّاه، يدل على ذلك ما قاله ابن منظور حول مادة الكلمة: دبر بالشيء: ذهب به، ودبر الرجل: ولَّى وشيَّخ، ودابر العيش: آخره، ودبر النهارُ وأدبر: ذهب. وأمسُ الدابر: الذاهب، ودبر السهمُ : أي خرج من الهدف، ورجل دابر: الذي يقطع رحمه، وتدابر القوم : تعادوا وتقاطعوا، ودبر القوم: هلكوا، وأدبروا: إذا ولَّي أمرُهم إلى آخرهم، فلم يبق منهم بقية [٢].

فمادة الكلمة توحي ببعد الرجل عن المجلس، ويعضد ذلك المعنى ما أبانت عنه تلك الرواية: "(فلما أدبر الرجل) ناداه، أو أمر به، فنودي له"[٣].

ولكن لماذا استرجعه النبي (ﷺ) مرة ثانية ؟ ربما لأنه (ﷺ) عقِب إجابته على هذا الرجل في المرة الأولى استوقف نفسه واسترجعها، وقلَّب النظر في

(١) ينظر : الجني الداني : ٥٩٤، وينظر البحث صـ ١٦ .

(٢) ينظر : لسان العرب : دبر .

(٣) موطأ مالك، كِتَابُ: الْجِهَادِ، بَابُ: الشُّهَدَاءِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، رقم : ٣١ ، (٢/ ٤٦١)، صححه ورقمه وخرَّج أحاديثه وعلق عليه: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت – لبنان، ١٤٠٦ هـ – ١٩٨٥ م .

الأمر؛ رغبة في الاحتياط، وعميق حرصه على تقويم ما يصدر منه من أحكام للمخاطبين، هذا احتمال.

واحتمال آخر: وهو أن نداء النبي (ﷺ) على هذا الرجل بعد ذهابه عنه، وإجابته بتلك الإجابة ليس من تلقاء نفسه، بل بإرشاد من الوحي، وهذا الاحتمال هو ما أميل إليه، ويؤيده قوله (ﷺ) في نهاية الحديث: "كذلك قال لي جبريل"، يقول الإمام النووي: "وهذا فمحمول على أنه أوحى إليه به في الحال"(١)، وهذا يؤكد " أن السنة وحي من الله (ﷻ) إلى نبيه (ﷺ) وهذا الوحي منه ما هو إعلامي، وله كيفيات متعددة، ومنه إقراري، يقر الله نبيه على تصرف تصرفه صوابا، وقد كان الوحي يراقب تصرفات الأمة أيضا، فينبه على ما ارتكبوه من أخطاء يظنونها صوابا، أو لم يعرفوا مخالفتها، أما ما عرفت مخالفته ووقع فيه فاعلُه مدركا تقصيره، وعالما حكمه، فهذا ليس داخلا في دائرة الوحي"(٢).

وفي حكاية أبي قتادة عن مناداة النبي (ﷺ) على هذا الرجل بالفعل (ناداه)، أو الأمر بمجيئه كما في رواية الإمام مالك في موطئه ما يدل على اهتمامه (ﷺ) باسترجاع الرجل واستيقافه؛ تعديلا للإجابة، وتصويبًا لها بحسب ما أوحى إليه .

واللافت للنظر أن النبي (ﷺ) عندما استوقف الرجل مرة ثانية لم يسأله قائلا: ماذا قلت؟، وهذا هو مقتضى الظاهر، بدليل أن الرجل أعاد عليه قوله، كما جاء في كلام أبي قتادة، ولكن النبي (ﷺ) سأله قائلا: كيف قلت؟ وهو

(١) شرح النووي على مسلم : ١٣/ ٢٩، ط دار إحياء التراث العربي – بيروت – الطبعة الثانية – ١٣٩٢ م .

(٢) المجالس الوعظية في شرح أحاديث خير البرية (ﷺ) من صحيح الإمام البخاري، المؤلف: شمس الدين محمد بن عمر بن أحمد السفيري الشافعي : ١ / ٧١، حققه وخرج أحاديثه: أحمد فتحي عبد الرحمن، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤٢٥ هـ – ٢٠٠٤ م

سؤال عن حال القول، وليس عن القول نفسه، ولعل في عدوله (ﷺ) إلى ذلك أنه (ﷺ) قصد أن يلج نفس الرجل، وأن يقف على الأحوال الباعثة له على هذا السؤال، فجاء سؤالُه مغلفًا بالحال، ملفوفا به، وربما قصد النبي (ﷺ) إضفاء صفة التعجب على المقام، وكيف وقف الدين حاجزا وعائقا أمام عظيمِ وجزيلِ عملِ هذا الرجل، ففوَّت عليه أن ينال تكفير خطاياه وذنوبه، وهذا مما يرجح أيضا أن النبي (ﷺ) استوقف هذا الرجل، وناداه مرة ثانية بناءً على وحي أُوحي إليه، فضلا عما أفاده هذا العدول من تنبيه الرجل، وإثارة حسه لتلقي تلك الإجابة الجديدة " فالتحول، أو الانحراف عن النسق المثالي للتعبير، يُحدث نوعا من الإثارة لدى المتلقي نتيجة التضاد الناجم عن الاختلاف الحادث من اختراق النظام، وهو اختلاف غير متوقع لدى القارئ، لذلك يحدث لديه نوعًا من المفاجأة والاستثارة"(١).

ومراعاةً لمقام التعجب والدهشة التي اعترت النبي (ﷺ) والتي يهمس بها النظم نراه يوجز الكلام ويختصره اختصارا، ويطوي منه ما يرشد إليه السياق في إجابته على الرجل مرة ثانية بقوله: نعم إلا الدين وتقدير المحذوف : نعم يكفر الله عنك خطاياك إلا الدين "**فلا يُكَفِّرُه إلا عفوُ صاحبه أو استيفاؤُه**"(٢).

وفي هذا الحذف تصفية لبيانه (ﷺ)، وتقوية لحبكه ؛ توفيرا للعناية بالاقتصار على ما هو أهم، كما أن فيه تنبيها للمتلقي، وتجديدا لنشاطه؛ بحثا عن المحذوف، فإذا وصل إليه بنفسه استقر المعنى في ذهنه(٣)، فضلًا عما

(١) استثمار الأسلوب العدولي في تذوق النص القرآني، د / عيد محمد شبايك، صـ ٣، مجلة كلية الآداب، جامعة المنوفية، العدد الثامن، يناير ٢٠٠٤ م .

(٢) شرح الزرقاني على الموطأ : ٣ / ٥٥ .

(٣) ينظر : الحذف البلاغي في القرآن الكريم، مصطفى عبد السلام أبو شادي : ٧، مكتبة القرآن – بدون.

في الحذف عموما من "إمتاعٍ لأهل الفكر بالاستنباط، والاستخراج الفكري، اعتمادا على دلالات القرائن"(١).

ونلحظ أنه (ﷺ) في إجابته على الرجل في المرة الثانية أعاد الإجابة الأولى بنصِّها (نعم) وكان من الممكن أن يقول له : إلا الدين هكذا مباشرة، اعتمادًا على ما ذكره في المرة الأولى، ولكنه (ﷺ) أراد أن يقرِّر ويؤكد نفس الإجابة؛ بثًا للأمل في نفس الرجل، ومراعاة لما داخل نفسه من السرور عند تلقيه الإجابة الأولى، فربما استشعر الرجلُ عندما أعاد عليه (ﷺ) السؤالَ مرة ثانية أن الإجابة ستتغير، فأعادها طبيب القلوب (ﷺ) بنصها؛ تأكيدا وتقريرا وتثبيتا لها في نفسه.

ولكن الذي فاجأ الرجل هي تلك الإضافة في إجابته (ﷺ) عليه بقوله (إلا الدين) بهذا الاستثناء الذي أضفى على التعبير الحسم، والحدة، والصرامة، والتحديد البالغ، والذي جاء التعبير به في ظل هذا المقام في غاية المناسبة في التنبيه على خطورة الدين، والتحذير من شأنه، ولعلك تلحظ هذا من نغمة الأداء الجرسي المنبعث من أداة الاستثناء هنا (إلا)، فالهمزة بخروجها من أقصى الحلق، وما ينبعث فيها من شدة كسرتها، ثم اللام المشددة، والتي تتناسب مع التشديد من شأن المستثنى، ثم سرعان ما ينتقل اللسان من تلك اللام المشددة ليقف ويضغط بشدة على حرف الدال في لفظ (الدين)، وقفْ بنفسك على تلك اللفظة، واقرأْها في سياقها، تستشعر أنها صارت كالعقبة الكؤود التي حالت هذا الشهيد دون استحقاق ثواب شهادته.

وهذا – بلاشك – مما يجسد رغبته (ﷺ) في البعد عن الدين ما أمكن، وحرصه على نقل هذا المعنى إلى السائل، وإشاعة التحذير منه وانتشار صداه للأمة كلها عبر أجيالها المتتابعة، وفي هذا " تنبيه على جميع حقوق

(١) البلاغة العربية أسسها وعلومها وفنونها، وصور من تطبيقاتها، بهيكل جديد من طريف وتليد، تأليف: عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني: ١/ ٣٤٥، ط ١ (دمشق – دار القلم – ١٤١٦ هـ- ١٩٩٦ م).

الآدميين، وأن الجهاد والشهادة وغيرهما من أعمال البر لا يكفر حقوق الآدميين، وإنما يكفر حقوق الله – تعالى – "[1].

والتعبير بلفظ (الدين) معرفا بأل التي للجنس مما يلقى بظلال الترويع، وشدة الترهيب والتخويف من الانزلاق نحو أبواب الدين، صغيره وكبيره، واتخاذه أصلا في التعامل بين الناس في حركتهم المالية أو التوسع فيه من أجل تحصيل الكماليات وما لا فائدة منه، كما تتعاظم خطورته في تعبيره عنه (ﷺ) بصيغة المصدر (الدين) مبالغة وتأكيدا واهتماما بأمر المعنى .

ومن الممكن حمل (أل) في لفظ (الدين) على إرادة العهد الذهني، يقول ابن عبد البر: "**وَهَذَا فِي دَيْنٍ تَرَكَ لَهُ وَفَاءً وَلَمْ يُوصِ بِهِ، أَوْ قَدَرَ عَلَى الْأَدَاءِ فَلَمْ يُؤَدِّ أَوْ أَنَّهُ فِي غَيْرِ حَقٍّ أَوْ سَرَفٍ وَمَاتَ وَلَمْ يُوَفِّهِ، أَمَّا مَنْ أَدَّانَ فِي حَقٍّ وَاجِبٍ لِفَاقَةٍ وَعُسْرٍ وَمَاتَ وَلَمْ يَتْرُكْ وَفَاءً فَلَا يُحْبَسُ عَنِ الْجَنَّةِ لِأَنَّ عَلَى السُّلْطَانِ فَرْضًا أَنْ يُؤَدِّيَ عَنْهُ دَيْنَهُ مِنَ الصَّدَقَاتِ أَوْ سَهْمِ الْغَارِمِينَ أَوِ الْفَيْءِ**" [2]، وفيه – أيضا – تبشيع من شأن هذا النوع من الديون، والتي يقع فيها أصحابها لغير حاجة أو ضرورة .

والاستثناء في قوله: (نعم إلا الدين) ذهب فيه الشيخ الملا علي القاري إلى أنه منقطع، كما جوَّز فيه الاتصال، فقال: "(نعم إلا الدين) مستثنى مما تقرره نعم، وهو قوله: "يكفر الله عني خطاياي" أي: نعم يكفر الله خطاياك إلا الدين، والدين ليس من جنس الخطايا فكيف يستثنى منه ؟ والجواب: أنه منقطع، أي لكن الدين لم يكفر؛ لأنه من حقوق الآدميين، فإذا أدى، أو أرضى الخصم خرج عن العهدة، ويحتمل أن يكون متصلا على تقدير المضاف، أي: إلا خطيئة الدين، وجعل من باب قوله تعالى: {يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى

(١) شرح النووي على مسلم ١٣/ ٢٩.
(٢) شرح الزرقاني على الموطأ : ٣ / ٥٥ .

ٱللَّهَ بِقَلۡبٖ سَلِيمٖ ﴿٨٩﴾}[1]. فنذهب إلى أن أفراد جنس الخطيئة قسمان: متعارف، وغير متعارف، فيخرج بالاستثناء أحد قسميه مبالغة في التحذير من الدين والزجر عن المماطلة والتقصير في الأداء"[2].

وأرى أن حمل هذا الاستثناء على الاتصال أولى، ففي هذا الوجه تتكاثف ظلال التحذير والتنفير من الدين بإدخاله بواسطة أداة الاستثناء في دائرة الخطايا والذنوب، وبهذا صار الدين المباح في أصل حكمه من جنس الخطايا والذنوب، وفي هذا غاية التبشيع، وحث بليغ على المبادرة بسداده قدر الطاقة إذا اضطر الإنسان إليه، وهذا – بلاشك – مما يهدف إليه البيان النبوي في تقليل دائرة التعامل به في الحياة وحث المدين على الاجتهاد في قضاء ما عليه، وإبراء ذمته منه قبل أن توافيه المنية وهو متورط فيه.

وإنْ قيل: إنَّ احتمال الانقطاع ظاهر فيه؛ لأن الدين ليس من جنس ما قبله، قلت: هذا في الدنيا، ولكن مقام الحديث وسياقه يؤكد أن الأمر أضحى في الآخرة، وأن هذا الشهيد الذي عظمت شهادته، وما زال الدين في عنقه، ولم يوفه بعد، صار حبيسَ دينه، وبهذا انتقل الدين من دائرة المباحات الدنيوية إلى عظيم الخطايا، والتي لاتكفرها تلك الشهادة العظيمة.

يقول صاحب شرح العقيدة الطحاوية: "فهذا دليل على أن الذي عنده شيء من حقوق الآدميين لا تغفر له، بل لابد فيها من المحاقة والمقاصة في الآخرة، فإذا لم يوف له أولياؤه في الدنيا فإنها تؤخذ من أعماله في الآخرة، وأما خطاياه التي بينه وبين ربه، فإن القتل في سبيل الله يمحوها كلها، ولا يبقى عليه ذنب"[3].

---

(١) سورة الشعراء، الآيتان :٨٨-٨٩.

(٢) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح : ٥ / ١٩٥٨ .

(٣) شرح العقيدة الطحاوية لابن جبرين: ٧ / ٦١، ضمن كتب العقيدة بالمكتبة الشاملة، دروس صوتية قام بتفرغيها موقع الشبكة الإسلامية: http://www.islamweb.net

ولم يقف بيان النبوة على مجرد الحكم القاطع بأن خطايا الشهيد تكفَّر كلُّها بشهادته إلا الدين، بل أراد النبي (ﷺ) أن يعطي هذا الحكم وثاقة وتوكيدًا فقال : (كذلك قال لي جبريل) .

وقد جاءت تلك الجملة السابقة مفصولة عن البيان السابق؛ حيث بنيت على القطع والاستئناف ؛ وذلك لقصد إشباع هذا الجزء من المعنى، لما له من مزيد عناية بالغرض المسوق له الكلام، وهو أن هذا الحكم الذي صدر وعدَّل به (ﷺ) إجابته على السائل ليس من تلقاء نفسه، بل من وحي السماء.

والقطع والاستئناف لقصد إشباع جزء من المعنى من طبيعة كلام العرب ومذهبهم " ومن عادتهم إذا جاء في الكلام مقطع ثري وحي ومثير وله مزيد اختصاص بالمعنى، وقفوا عند هذا المقطع، وأشبعوه وذادوه بيانا"(١).

وتزداد عناصر التوكيد وتتعاظم في تلك الصياغة اللافتة من رسول الله (ﷺ) فلم يكن بيانه: (قال جبريل ذلك لي)، ولو قال ذلك، ما أفاد ما جاء عليه نظم بيانه من توثيق كلامه وإضفاء طابع التوكيد عليه، والذي دل عليه النظم بتلك الصورة التشبيهية، والتي عمادها كاف التشبيه في (كذلك)(٢)، أي ما قلته لك، أو: قولي لك أن شهادتك تكفر خطاياك كلها إلا الدين كقول جبريل ذلك لي، وفي هذا غاية التحذير، وبالغ التوثيق والتوكيد، فضلا عما أفاده هذا التشبيه من الإيجاز البليغ والذي جاء في غاية المناسبة للمقام.

كما أضفى تقديم قوله (كذلك) على متعلقة (قال) على الحكم مزيدا من العناية والاهتمام، وذلك لما يتجلى به التقديم من أنه "أعون على إظهار الأغراض والمقاصد"(٣)، وفيه مزيد لفت للانتباه نحو المشار إليه بـ (ذا) أي:

(١) شرح أحاديث من صحيح البخاري، د / محمد أبو موسى : ٢٠٠ .

(٢) ينظر : البيان عند الشهاب الخفاجي في كتابه : (عناية القاضي وكفاية الراضي)، القسم الأول، د / فريد محمد بدوي النكلاوي، صـ : ٣٨ – ٤٠، ط : مطبعة الأمانة، ١٤٠١ هـ – ١٩٩٨ م .

(٣) علم المعاني، د/ صباح دراز: ١٨٦، مطبعة التركي– طنطا، ١٤١٧ هـ– ١٩٩٧م.

هذا الحكم الذي قاله (ﷺ) للرجل في شأن الدين، وفي تلك الإشارة ما يوحي بعظم هذا المعنى في نفسه (ﷺ) مما جعله يصوره في بيانه بصورة الشيء المحسوس الذي يشار إليه، كما آذن تعبيره (ﷺ) باسم الإشارة الذي للبعيد بكمال تمييزه لهذا الحكم تمييزا ظاهرا، حتى يكون هذا الرجل، وكل سامع، في منأى وبعدٍ عن الدين ما أمكنه، لشدة خطره، والذي تجلى في هذا السياق الكاشف عن حجب هذا الشهيد عن أن ينال ثواب شهادته، فما بالنا بغيره ؟

كما أضفى تقديم المتعلق (لي) على الفاعل (جبريل)– عليه السلام – الإعلان القاطع بأنه (ﷺ) هو المبلغ عن جبريل هذا الوحي ؛ حرصًا على أمته، وتأكيدا على عظم وخطورة الدين.

وبهذا يتلاقى هذا الحديث مع الحديث سابق التحليل في أن التشديد في الدين، والتحذير منه، ليس من تلقاء النبي (ﷺ) بل هو من الوحي النازل من السماء، و"**فِيهِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ حُقُوقَ اللَّهِ – تَعَالَى – عَلَى الْمُسَاهَلَةِ، وَحُقُوقَ الْعِبَادِ عَلَى الْمُضَايَقَةِ، وَعَلَى أَنَّ جِبْرِيلَ – عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ – يُلَقِّنُهُ أَشْيَاءَ سِوَى الْقُرْآنِ**"(١).

❁❁❁❁❁

(١) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح : ٥ / ١٩٥٨ .

المقام الثالث

امتناعه (ﷺ) عن الصلاة على المدين حتى يُضمن دينه

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ عَقِيلٍ، عَنْ جَابِرٍ[1]، قَالَ: تُوُفِّيَ رَجُلٌ فَغَسَّلْنَاهُ وَحَنَّطْنَاهُ وَكَفَّنَّاهُ، ثُمَّ أَتَيْنَا رَسُولَ اللَّهِ (ﷺ) لِيُصَلِّيَ عَلَيْهِ، فَخَطَّ خَطًّا، ثُمَّ قَالَ: «هَلْ عَلَيْهِ دَيْنٌ؟» قُلْنَا: نَعَمْ، دِينَارَانِ، قَالَ: «صَلُّوا عَلَى صَاحِبِكُمْ» فَقَالَ أَبُو قَتَادَةَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، دَيْنُهُ عَلَيَّ اللَّهِ، فَقَالَ رَسُولُ (ﷺ): «هُمَا عَلَيْكَ حَقَّ الْغَرِيمِ، وَبَرِئَ الْمَيِّتُ» قَالَ: نَعَمْ، فَصَلَّى عَلَيْهِ، ثُمَّ لَقِيَهُ مِنَ الْغَدِ، وَقَالَ: «مَا فَعَلَ الدِّينَارَانِ؟» قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّمَا مَاتَ أَمْسِ، ثُمَّ لَقِيَهُ مِنَ الْغَدِ، فَقَالَ: «مَا فَعَلَ الدِّينَارَانِ؟» فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَدْ قَضَيْتُهُمَا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ (ﷺ): «الْآنَ، بَرَّدْتَ عَلَيْهِ جِلْدَهُ»[2].

هذا الهدي النبوي الذي بين أيدينا يبدأ بهذا المشهد الجنائزي، والذي حكاه الصحابي الجليل سيدنا جابر بقوله: (توفى رجل فغسلناه وحنطناه وكفناه ثم أتينا رسول الله (ﷺ) ليصلى عليه).

وقد جاء بيانه السابق في صورة السرد الخبري، والذي يتناسب مع مقام حكاية تلك القصة، وقد جاء خاليا من ألوان التوكيد ؛ لأنه لا مجال للإنكار أو التردد في شيء من مضمونه، كما اشتمل على عدة أفعال ماضوية معطوفة

(١) هو جابر بن عبد الله بن عمرو بن حرام الخزرجي الأنصاري السلمي: صحابي، من المكثرين في الرواية عن النبي صلّى الله عليه وسلم وروى عنه جماعة من الصحابة. له ولأبيه صحبة. غزا تسع عشرة غزوة. وكانت له في أواخر أيامه حلقة في المسجد النبوي يؤخذ عنه العلم. روى له البخاري ومسلم ، الأعلام للزركلي : ١ / ١٠٤ : دار العلم للملايين، الطبعة: الخامسة عشر – أيار / مايو ٢٠٠٢ م .

(٢) مسند الإمام أحمد بن حنبل، مسند جابر بن عبد الله (رضي الله عنه)، ٣/٣٣٠، حديث رقم : (١٤٥٧٦) تعليق شعيب الأرناؤوط: إسناده حسن من أجل عبد الله بن محمد بن عقيل فإنه يعتبر به في المتابعات والشواهد فيحسن حديثه، وباقي رجال الإسناد ثقات، رجال الصحيح.

بعضها على بعض، تناسبًا مع توالى تلك الأحداث، وتلاؤما مع مقام سرعة الإعداد لدفن الميت، ومثل هذه المواقف حث الإسلام على سرعة التعجيل بها؛ إكرامًا للميت وسترًا له .

ونلمح في بيانه هذا التغاير بين حروف العطف الثلاثة (الفاء والواو وثم)، فالتعبير بالفاء في (توفى رجل فغسلناه) فيه دلالة على تغاير الحدثين المتعاطفين؛ لاختلاف فاعلهما، كما ينبئ عن حرص الصحابة –رضوان الله عليهم – على سرعة تجهيز هذا الميت للدفن .

أما الأفعال (فغسلناه، وحنطناه، وكفناه)، فالفاعل واحد، فكان التعبير بحرف العطف (الواو) هو الأنسب لمجرد العطف، وما يفيده من معنى الترتيب لتلك الأفعال، ثم جاء التعبير بالحرف (ثم) في قوله : (ثم أتينا رسول الله (ﷺ) ليصلي عليه)، ليعكس هذا الوقت الزمني في حملهم وسيرهم بتلك الجنازة، تغشاهم التؤدة والوقار والسكينة ؛ حيث العبرة والعظة وجلال المشهد وعظم مرآه، ولهج الألسنة بذكر الله – تعالى – وتذكر الآخرة، وقد جاء الفعل (أتينا) مناسبا لتلك المعاني لما يمتاز به من الدلالة على خفة الحركة وسهولتها، ومرجع تلك السهولة– في ظل مقام الحديث – أن حركة هؤلاء القوم الذين تبعوا تلك الجنازة صادرة عن طواعية ورغبة في اكتساب الأجر والثواب، وليس عن تكلف منهم، فيصعب عليهم مشقة ذلك .

وقبل أن ينقل لنا راوي الحديث لغة بيانه (ﷺ) يطلعنا على ما صدر منه من حركة فعلية ذات مغزى دلالي جليل، وهي التمهيد لما سيليقيه عليهم (ﷺ) والتي فسَّرها فيما بعد بقوله: (هل عليه دين ؟)، وهذه الحركة أنبأ عنها بقوله: (فخطَّ خطًّا) وفيها دلالة على قصد اللفت والتنبيه لهم، واستيقافهم واستيقاظ مواطن التركيز فيهم، وكأنها إشارة حمراء أو ضوء أحمر، ويقصد (ﷺ) من خلاله أن يرسم لهم حدًّا واضحا يريد منهم ألا يتعدوه، بل ويشترط عليهم ذلك، ويحذرهم من مغبة التهاون فيما سيلقيه عليهم من سؤاله عن هذا الميت بقوله (هل عليه دين ؟) وتلك الحركة الحسية (فخط خطا) كان النبي

(ﷺ) يستعملها – أحيانا – في التنبيه على الأمر المهم، قاصدا عدم تعديه، أو الالتفاف حوله، وهذا أسلوب تعليمي فريد ؛ لأن الإشارة الحسية أعلق وأمكن في النفس من الأسلوب المقالي والتلقيني، " ومن المعلوم أن الشيء المحسوس المشاهد أقوى تأثيرا في النفس، وأشد علوقا بالقلب، وأكثر ثباتا في الذهن من الشيء المعقول"(١)، فأخرج ابن ماجه في سننه عن الشعبي عن جابر بن عبد الله قال: ((كنا عند النبي (ﷺ) فَخَطَّ خَطًّا، وَخَطَّ خَطَّيْنِ عَنْ يَمِينِهِ، وَخَطَّ خَطَّيْنِ عَنْ يَسَارِهِ، ثُمَّ وَضَعَ يَدَهُ فِي الْخَطِّ الْأَوْسَطِ، فَقَالَ: هَذَا سَبِيلُ اللَّهِ، ثُمَّ تَلَا هَذِهِ الْآيَةَ: {وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ})) (٢).

وقد أنبأ التعبير بالحرف (ثم) في قول الراوي (ثم قال: هل عليه دين؟) عن شيء من تمهله (ﷺ) وتأنيّه، وتدبره في الموقف، وأن الأمر شغل ذهنه وقتًا ما، هذا إذا حملت على حقيقة معناها، ولا يبعد عن السياق أن تحمل على غير حقيقتها الدلالية، تناسبًا مع جلال الموقف واستعظامه، وحرصه (ﷺ) على أن يلفت انتباههم لسؤاله بعد ذلك بقوله: (هل عليه دين ؟).

وهو استفهام على حقيقته من قصد طلب الاستيضاح والبيان، وبه يرشد النبي (ﷺ) الصحابة الحاضرين وجموع الأمة من بعدهم إلى أن أول ما يُسأل عليه بعد الموت، وقبل عملية الدفن هو الدين ؛ دلالة على خطورته، لأنه يتعلق بحقوق العباد، وينبغي أن يبادر بسرعة أدائه قبل الانتقال إلى دار الآخرة.

---

(١) البلاغة القرآنية في التصوير بالإشارة والحركة الجسمية، د / عبد الله محمد سليمان هنداوي : صـ : ٣، ٤، مطبعة الأمانة، الطبعة الأولى، ١٤١٦ هـ – ١٩٩٥ م .

(٢) رواه ابن ماجه في سننه : ١ / ٦، رقم : ١١، بَابُ اتِّبَاعِ سُنَّةِ رَسُولِ اللَّهِ (ﷺ)، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، الناشر: دار إحياء الكتب العربية – فيصل عيسى البابي الحلبي، والآية من سورة الأنعام، جزء من الآية :١٥٣.

ويجيبه الصحابة (ﷺ) كما يقول الراوي: (قلنا نعم: دينارن)، وقد أُسند القول إلى جميعهم، والقائل أحدهم أو بعضهم؛ إذ لا يعقل أن الإجابة صدرت منهم جميعا في وقت واحد، وذلك على سبيل المجاز العقلي، وعلاقته: الإسناد إلى الجنس، وهو في الحقيقة للبعض[1]، وفيه إيحاء بأن أمر دَيْن هذا الرجل كان مشهورًا ومعلومًا بين الناس، حتى أجاب بعضهم وسكت الآخرون موافقة لما قالوه.

ومن الوجوه البلاغية التي اشتملت عليها إجابتهم الإيجاز بالحذف، والتقدير: نعم عليه دينارن، بحذف المسند إذا قدر مقدمًا، أو : دينارن عليه، بحذفه – أيضًا – إذا قدَّر مؤخرا، وعلى كلا التقديرين فهو إيجاز بليغ جاء في غاية المناسبة للمقام، وحرصهم على تعجيل الإجابة على رسول الله (ﷺ)؛ ليبادر بالصلاة على أخيهم، سترًا له وسكينة ورحمة به.

كما يُلمَح في طيات هذا الحذف، وتركيز العبارة، وتنكير المسند إليه (دينارن) أن هذا الميت ما عليه إلا شيء هين لا خطر له ولا قيمة – وذلك من منظورهم – وكأن لسان حالهم يقول : ما هو إلا دينارن فحسب.

ولكنهم يفاجئون بقوله (ﷺ): (صلوا على صاحبكم) وكأن لسان حاله (ﷺ) يقول لهم : فإني لا أصلى عليه، "والنبي – عليه الصلاة والسلام – ما ترك الصلاة على هذا الرجل تكفيرا له، أو إخراجا له عن الملة، أو لأنه ليس من أهل القبلة، والدليل على ذلك قوله لهم: (صلوا على صاحبكم)، ولو كان كافرا بهذا الذنب لما أمرهم – عليه الصلاة والسلام – أن يصلوا عليه، والذي دفع النبي – عليه الصلاة والسلام – أن يقول ذلك هو أنه مشرع، وقوله: دين يُتعبد به إلى لقيام الساعة، فأراد النبي – عليه الصلاة والسلام – أن يبين خطورة الدين، وأن يزجر الأحياء أن يقعوا في مثل ما وقع فيه الميت"[2]، وفيه

(١) ينظر: من أساليب القرآن : المجاز العقلي، د / عبد الرازق محمد فضل : ١٣٢، ط ١٩٩٦ م.

(٢) شرح أصول اعتقاد أهل السنة للالكائي : ٢/٢١٥ ، تحقيق: أحمد بن سعد بن =

"إشعار بصعوبة أمر الدين، وأنه لا ينبغي أن يتحمله إنسان إلا من ضرورة، وأنه إذا أخذه فلا ينبغي أن يتراخى في أدائه إذا تمكن منه "[1] .

وقد بيَّن النبي (ﷺ) في حديث آخر علة امتناعه من الصلاة على المدين بأنها لن تنفعه، حيث أتى بجنازة ليصلي عليها فقال: "هَلْ عَلَيْهِ دَيْنٌ؟ " قَالُوا: نَعَمْ، قَالَ: **((مَا تَنْفَعُكُمْ صَلاتِي عَلَيْهِ، وَهُوَ مُرْتَهَنٌ فِي قَبْرِهِ، فَإِنْ ضَمِنَ رَجُلٌ دَيْنَهُ صَلَّيْتُ عَلَيْهِ، فَإِنَّ صَلاتِي تَنْفَعُهُ))**[2].

وبالتأمل في توجيهه (ﷺ) لهم بالصلاة على صاحبهم يتبادر إلى الذهن أن يسألهم قبل هذا التوجيه قائلا: هل ترك ما يوصى به، أو هل ترك ما يؤدي عنه، في محاولة لإيجاد مخرج لهذا الرجل، يُسدَّد به دينهُ، وتسقط به تبعته.

ولكنه (ﷺ) يعمد مباشرة بتوجيههم إلى الصلاة على هذا المدين بهذا الأسلوب الإنشائي (صلوا على صاحبكم)، والذي يهمس بالتحذير والتخويف من شأن الدين، ويُشتم من رائحته الغضب والرفض، كما يوحي هذا الأمر بإثارة الشفقة في قلوب الصحابة وإلهاب نفوسهم حتى يتكفل أحدهم بسداد دينه، ومن هنا عبَّر (ﷺ) بلفظ (صاحبكم) مع إضافته إليهم .

وقد كان ذلك من هذا الصحابي الجليل أبي قتادة، يقول الراوي: " فقال أبو قتادة: يا رسول الله : دينه على الله).

=حمدان الغامدي، دار طيبة – السعودية، الطبعة: الثامنة، ١٤٢٣هـ / ٢٠٠٣م.

(١) الكوكب الوهاج والروض البهاج في شرح صحيح مسلم بن الحجاج: ١٨ / ٤٢، مراجعة لجنة من العلماء برئاسة البروفسور / هاشم محمد على مهدي، دار المنهاج و دار طوق النجاة – لبنان – بيروت – الطبعة الأولى – ١٤٣٠ هـ – ٢٠٠٩ م.

(٢) الحديث في المعجم الأوسط للطبراني (٥/ ٢٥٨)، حديث رقم : ٥٢٥٣، تحقيق: طارق بن عوض الله بن محمد الحسيني، الناشر: دار الحرمين – القاهرة، وينظر : الزواجر عن اقتراف الكبائر، أحمد بن محمد بن علي بن حجر الهيتمي السعدي الأنصاري، شهاب الدين شيخ الإسلام، أبو العباس : ١ / ٤١٢ ، دار الفكر، الطبعة: الأولى، ١٤٠٧هـ – ١٩٨٧م.

وقد أنبأ التعبير بالفاء في فعل القول (فقال) عن سرعة تحمل أبي قتادة لهذين الدرهمين دون تفكير؛ حرصا منه على صاحبهم ؛ ليحظى بصلاة النبي (ﷺ) عليه، ولا تُنسِه تلك اللهفة الأدبَ والوقارَ في خطابه (ﷺ) فيناديه بـ (يا رسول الله)، تعظيما وإجلالا، وما زال الأدبُ وحسنُ الخلق يلازمه، فلم يُصرِّح لفظا بتحمل دين الرجل، بل أومأ إلى ذلك فقال: (دينه على الله)، ربما إشارة منه في عدم جرح مشاعر أهل هذا الميت، وربما إشارة منه إلى أنه قادر على سداد هذا الدين وتحمله بتوفيق الله له، ولذلك أوْكَل الأمر إلى الله، كما ينبئ بذلك قوله: (دينه على الله) قال – تعالى – : {وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ}(١).

وتتأتى بلاغة أبي قتادة في تقديمه لفظ المسند إليه (دينه)، دون تقديم شبه الجملة بما تحويه من التعبير باسم الله الأعظم (على الله)؛ لأن الدين هو محور الكلام، والغرض المنصب حوله، فقدمه للاهتمام به، لأنه محل انشغالهم.

وقد صرَّحت رواية أحمد بن حنبل بتحمله صراحة لهذين الدرهمين: (فقال أبو قتادة : الديناران عليَّ)(٢)، معبرًا بلفظ المسند إليه، محددا ومميزا لهما بأل التي للعهد الخارجي الصريحي(٣) تقريرًا وتوكيدًا لتحمل سدادهما.

ورغبة من النبي (ﷺ) في مزيد من الاستيثاق والتوكيد لتحمل أبي قتادة لهذين الدرهمين يبادره بقوله – كما يحكي راوي الحديث –: (فقال رسول الله (ﷺ) هما عليك حقَّ الغريم، وبرئ الميت ؟، قال: نعم).

---

(١) سورة الطلاق، جزء من آية رقم :٣.

(٢) مسند أحمد : (٢٢/ ٤٠٦)، مُسْنَدُ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، رقم : ١٤٥٣٦.

(٣) لام العهد الخارجي الصريحي: وهي التي يتقدم لمدخولها ذكر صريح في الكلام، نحو: ضربت رجلا فمات الرجل. ينظر : بغية الإيضاح للشيخ / عبد المتعال الصعيدي: ١/ ٩٥.

وإجابة أبي قتادة على النبي (ﷺ) بـ (نعم) قرينة واضحة على أن بيانه السابق ليس من قبيل الخبر المقرِّر والمؤكِّد لتحمل أبي قتادة لهذين الدرهمين، بل هو من الأسلوب الإنشائي، والذي عماده الاستفهام التنغيمي؛ حيث حذفت أداة الاستفهام؛ اكتفاء بنغمة الأداء، والتقدير: أهما عليك ... يقول ابن القيم: "إن حروف الاستفهام قد يسوغ إضمارها في بعض المواطن؛ لأن للمستفهِم هيئةً تخالف هيئة المخبِر"(١).

وقد أراد النبي (ﷺ) من ورائه أن يقرر أبا قتادة، وأن يسمع منه الإجابة الصريحة على تحمله وتكفله بسداد هذا الدين، وفيه فضل إثارة، ومزيد تنبيه وإيقاظ؛ ليعي ما يلقي عليه، ويدرك أنه بالموافقة صار الدين في عنقه، وبرئ هذا المدين من تبعته.

وهذا الاستفهام جاء بمعنى: طلب الإقرار، أي : حمل المخاطب على الإقرار بما يعلم ويعلمه المخاطب وإلجائه إلى ذلك الإقرار وإلزامه إياه؛ لتحقيق غرض من الأغراض (٢)، وهذا الغرض هو الاستيثاق والتوكيد، بدليل أن الرجل قد أبان من قبل عن موافقته على تحمل هذين الدرهمين في قوله (دينه على الله)، بل ذكر ذلك صراحة في رواية الإمام أحمد بن حنبل بقوله: (الديناران علي).

وقوله (ﷺ): (هما عليك) مبتدأ وخبر، و(حقَّ الغريم) بالنصب حال، أي هما عليك حالة كونهما حق الغريم، والتعبير بالجملة الاسمية (هما عليك) جاء في غاية المناسبة لمقام الاستيثاق، وشدة الاستيضاح، والرغبة القوية في تحديد الأمر وحسمه، وهذا منه (ﷺ) دال على مزيد عنايته بأمر سداد هذا الدين، وأنه أراد أن يلفت أبا قتادة على أخذ الأمر مأخذ الجد قبل الإجابة عنه، فإذا

(١) بدائع الفوائد لابن القيم الجوزية : ١ / ٢١٥، تحقيق: هشام عطا وآخرون، مكتبة نزار مصطفى الباز، مكة المكرمة، ط الأولى – ١٤١٦ هـ – ١٩٩٦م.

(٢) ينظر : الجنى الداني في تذوق المعاني، د / عبد الحليم محمد شادي : صـ ٨٨، مطبعة الأمانة، الطبعة الأولى –١٤٠٧ هـ – ١٩٨٧ م .

ما تمت موافقتُه كان أمر الدرهمين ملزما له في عنقه، لا ينبغي له التهاون، أو التقاعس في السداد بأي حال من الأحوال.

وإذا كانت الرواية السابقة – محل الدراسة – عبَّرت بنصب (حقَّ الغريم) وذلك على الحالية، فقد عبَّرت رواية أخرى بالضم، والتعبير بـ (بُرء) مصدرا، وهي: ((**هما عليك حقُّ الغريم وبُرْءُ الميت**))[1]، وذلك إما على اعتبار (حق الغريم) خبر (هما) أي: هما حق الغريم عليك، وبُرء الميت، أو: (حقُّ الغريم) خبر لمبتدأ محذوف، والتقدير: هما عليك، هما حق الغريم، ويكون التعبير بالضمير العائد على الدين مكررًا مرة مصرحًا به، ومرة مقدرا، وهذا يتناسب مع كونها – أي الدرهمين – مصدر انشغاله (ﷺ)، ومحل اهتمامه.

والتعبير بالمصدر (وبُرُء الميت) عطفا على (حقُّ الغريم)، للتأكيد على إبراء ذمة الميت، والمبالغة في المعنى .

والتعبير بحرف الاستعلاء، وتوجيه الخطاب المباشر إليه في (عليك) فيه إلزام وتشديد عليه بذاته في السداد والتحمل، والتعبير بالضمير العائد على الدرهمين (هما) وتقديمه؛ لأن مدار الكلام عليهما، والتركيز على مبلغ قيمة الدين، وإن كان شيئًا هينًا .

وفي رواية أخرى: ((أحق الغريم، وبرئ منهما الميت ؟))[2] بالتصريح بهمزة الاستفهام، لمزيد من التنبيه، وإبراز المعنى في ذهن أبي قتادة في صورة قوية لا تحتمل لبسا أو غموضا، حفاوة بأمر المعنى، وإشعارًا بخطورة ما يُستفهم عنه.

---

(١) السنن الصغرى للبيهقي، كِتَابُ الْبُيُوعِ، بَابُ الضَّمَانِ،رقم : ٩٦١، تحقيق: عبد المعطي أمين قلعجي، دار النشر: جامعة الدراسات الإسلامية، كراتشي ـ باكستان، الطبعة: الأولى، ١٤١٠هـ – ١٩٨٩م.

(٢) السنن الكبرى للبيهقي، كِتَابُ: الضمان، بَابُ: الضَّمَانِ عَنِ الْمَيِّتِ، رقم الحديث: ١١٤٠٥، (٦/ ١٢٤) تحقيق: محمد عبد القادر عطا، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، الطبعة: الثالثة، ١٤٢٤ هـ – ٢٠٠٣ م.

وفي تلك الرواية حذف المسند ، وتقديره: أحق الغريم عليك، تركيزا في العبارة على ما هو أهم، وطيا لما هو مفهوم من الكلام .

وفي أخرى: ((قد أوفى الله حق الغريم، وبرئ منهما الميت))[1]، وفيها التأكيد على وصول حق الغريم إليه بواسطة حرف التحقيق (قد) وذكر اسم الله الأعظم، وإسناد وفاء الدين إليه، وكأن وفاء أبي قتادة لهذا الدين، وفاءً لحق الله – تعالى –، والتصريح في هاتين الروايتين بمتعلق الفعل (برى) وهو قوله (منهما)؛ للتنصيص على إبراء ذمة هذا الميت، والتأكيد على ذلك.

وهكذا تتعدد الروايات، وقد جاءت كل رواية لتبرز معنى جديدًا، أو تلفت إلى أمر مهم؛ حتى يتضح المراد، ويكتمل المعنى، وتتنوع الفائدة، ومن هنا كان تعدد الروايات مظهرا من مظاهر البلاغة النبوية، وطريقا بارزا في الكشف عن كل جوانب المعنى، وليس كما يسعى بعضهم في اتخاذه وسيلة من وسائل التشكيك، أو النيل من سنته(ﷺ).

والتعبير بصيغة المصدر (حق) يوحي بالمبالغة في حتمية السداد، وأن تحمل هذين الدرهمين – بمجرد الموافقة – أصبح أمرًا ثابتًا نافذًا في رقبته.

و(أل) في الغريم للعهد الذهني؛ لأن صاحب الحق معروف ومحدد، وإضافة (حق) إلى (الغريم) يشعر بوجود الطرف الآخر (الدائن) وكأنه حاضر وشاخص أمام أبي قتادة يطالبه بسداد دينه، بدلا من الميت.

والغريم كما يقول الراغب: "يقال لمن له الدين، ولمن عليه"[2]، أي أن الكلمة تعني الدائن والمدين، ولكن السياق يشير إلى أن المراد: من له الدين، ويؤيده قوله (ﷺ): (عليك) ولفظ (حق)، وصاحب الحق، هو الدائن.

---

(١) مجمع الزوائد ومنبع الفوائد للهيثمي، كتاب: الجنائز، باب: الصلاة على من عليه دين: ٣/ ٣٩، رقم : ٤٢٠٨ تحقيق: حسام الدين القدسي، مكتبة القدسي، القاهرة، ١٤١٤هـ، ١٩٩٤ م

(٢) المفردات: ٣٦٢.

ولعل في إيثاره (ﷺ) التعبير بلفظ (الغريم) دون (حق الدائن)، لما يشعر به لفظ (الغريم) من مظلومية الدائن، وأنه صاحب حق في المقام الأول والأخير، بل كانت نيته عند إعانة المدين التنفيس عنه والوقوف معه في محنته، فما ذنبه إذن في تحمل الغرم والضرر ؟

يضاف إلى ذلك: أن ذكر هذه الكلمة بذاتها في هذا السياق يلقي بظلال التذكير لأبي قتادة بمسئولية التحمل والإلزام بعملية السداد،" وفي الحديث: ((الدين مقضي، والزعيم غارم))[1]؛ لأنه لازم لما زعم، أي كفل، أو الكفيل لازم لأداء ما كفله مُغْرمة، وفي حديث آخر: ((الزعيم غارم))[2]، الزعيم: الكفيل، والغارم الذي يلتزم ما ضمنه وتكفل به"[3].

وجملة (وبرئ الميت) في محل نصب حال، وهي داخلة في بنية الاستفهام السابق، وقد جاء التعبير بها على سبيل الإطناب لقصد التأكيد على ثبوت الحق في ذمته، ووجوب أدائه وأنه هو المطالب به لإبراء ذمة الميت منه، وقد كان يكفي في بيانه (ﷺ) الاقتصار على جملة: (هما عليك حق الغريم) لولا قصد تلك المعاني .

ومن خصائص النظم ذات الدلالات البلاغية ما يلحظه القارئ من هذا التغاير في بناء جملة (هما عليك حق الغريم) على الاسمية، في حين عدل النبي (ﷺ) إلى التعبير بالفعلية في جملة الحال (وبرئ الميت) ولعل السر في

---

(١) صحيح، أخرجه الطيالسى (١١٢٨) وعنه البيهقى (٨٨/٦) وأحمد (٢٦٧/٥) والسياق له وأبو داود (٣٥٦٥) وابن عدى (١/١٠) من طريق إسماعيل بن عياش حدثنا شرحبيل ابن مسلم الخولانى قال: سمعت أبا أمامة الباهلى يقول: فذكره، ينظر: إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل، محمد ناصر الدين الألباني: (٥/ ٢٤٦)، إشراف: زهير الشاويش، المكتب الإسلامي – بيروت، الطبعة: الثانية ١٤٠٥ هـ – ١٩٨٥م.

(٢) السابق نفسه.

(٣) لسان العرب: غرم.

ذلك يرجع إلى مقصده (ﷺ) في إعطاء الجملة الأولى طابع الثبوت والدوام والاستمرارية، دلالة على ثبوت هذا الدين، وهذا الغرم في ذمة أبي قتادة وأن يكون تحمله له – إذا ما قَبِل – تحملًا ملزمًا، ومعلوم أن التعبير بالجملة الاسمية أقوى من التعبير بالجملة الفعلية[1]؛ لأن وضع الجملة الاسمية على إفادة الثبوت، ووضع الجملة الفعلية على إفادة التجدد جعل الجملة الاسمية تدل على معنى أَوْفَى مما تدل عليه الجملة الفعلية في بعض المقامات[2].

وفي عدوله (ﷺ) عن الجملة الاسمية إلى التعبير بالجملة الفعلية الماضوية في جملة الحال مزيد جذب لانتباه أبي قتادة بأن مجرد قبوله لتحمل هذين الدينارين تكون ذمة الميت قد برئت براءة محققة مؤكدة، ومن ثم عدل (ﷺ) أيضا عن التعبير بالفعل المضارع و(يبرأ الميت) مع أن مقتضى الظاهر أن يعبر به ؛ لأن ذمة الميت لم تبرأ بعد ؛ وذلك للدلالة على تأكيد تحقق تلك البراءة، وكأنه(ﷺ) يحكي عن شيء قد حدث وتحقق.

ولسائل أن يقول : أن بناء تلك الجملة الاسمية بتقديم المسند إليه على الخبر الفعلي (والميت برئ) فيه تأكيدُ الخبرِ ما فيه، لما في ذلك من إسناد الفعل (برئ) إلى المسند إليه مرتين، الأولى: إسناده إلى الاسم الظاهر، والثانية: إسناده إلى ضميره، فضلا عما في ذلك من إضفاء التناسب بين الجملتين المتعاطفين في الاسمية، فلماذا لم يكن بناء نظمه (ﷺ) على ذلك، وكان بناؤه على ما نطق به بيانه، و(برئ الميت) بتقديم المسند وبناء الكلام عليه؟

(١) ينظر: مواهب الفتاح في شرح تلخيص المفتاح، ضمن شروح التلخيص لابن يعقوب المغربي: ١ / ٢٢٠، دار الإرشاد الإسلامي – بيروت – بدون .

(٢) ينظر: البلاغة العالية (علم المعاني)، للشيخ / عبد المتعال الصعيدي: ٥٨، تحقيق: عبد القادر حسين، مكتبة الآداب – الطبعة الثانية – ١٤١١ هـ – ١٩١١ م.

أقول: إن الذي يشغل باله (ﷺ) ليس (الميت) ليبني الكلام عليه، بل الذي يشغله إبراء ذمة هذا الميت، ولذلك قدم ما هو أهم في إبراز مقصده، وما هو أعلق بذهنه .

وفي التعبير بالفعل (برئ) ما يوحي بأن هذا الميت لم يعد له ثمة ارتباط بهذا الدين من حيث المطالبة به ؛ لأنه أضحى في ذمة الله، لا حول له ولا قدرة على الأداء، ومن هنا كانت دقة البلاغة النبوية في التعبير عنه بلفظ (الميت) دون (وبرى صاحبكم) كما قال (ﷺ) عندما أمرهم بالصلاة عليه (صلوا على صاحبكم)، فكان التعبير بكل لفظ هو الآنس والأنسب لسياقه، فالتعبير بـ (صاحبكم) في سياقه فيه إيحاء بالتذكير لهم بحق الصحبة، وهذا الرابط الإيماني الذي يجمع بين قلوبهم، وكأن اللفظ يرقق قلوبهم نحو استنجاد صاحبهم وغوثه، أما عند تقرير إبراء ذمته كان الآنس بالسياق التعبير بـ (الميت)؛ لأن صلته انقطعت عن الدنيا تماما، وبالأخص الدين الذي في ذمته؛ حيث انتقل إلى ضامن وكفيل آخر بمجرد موافقته على ذلك .

و(أل) في (الميت) هي لام العهد الخارجي الصريحي، حيث تقدم ذكر مدخولها صراحة في قول راوي الحديث (توفى رجل) وفي قوله (ﷺ): (صلوا على صاحبكم) وانتشار هذا اللفظ وشيوع ذكره مع تنوع صيغة بين التعريف والتنكير؛ لأنه هو محور الكلام وعموده الذي بني عليه، ومن أجل دَينِه كانت قصة الحديث، ونمو أحداثه .ولا تخفى تلك المقابلة – في بيانه (ﷺ) حيث قابل بين تحمل أبي قتادة للدين، وإبراء الذمة الميت منه، وقد أدلت بدلوها في تأكيد المعنى المراد وإبرازه واضحًا قويًا مترابطًا، كما كان ذكر الطرف الثاني من المقابلة (وبرئ الميت) مع إمكان الاستغناء عنه في النظم، حيث ترشد الجملة الأولى إليه، وذلك حتى يتحدد الأمر المراد بكل طرف في ذهن أبي قتادة تحديدًا قويًا، وتكون الصورة في ذهنه جلية واضحة.

وقد أدرك أبو قتادة ذلك، فجاءت إجابته على النبي (ﷺ) إجابة حاسمة محددة، لا تحمل لبسا أو غموضا: (فقال: نعم) وقد جاءت مع وضوحها

مختصرة مكتنزة، حيث الإيجاز بالحذف، والتقدير: نعم هما علىَّ حق الغريم، وذلك لدلالة الكلام السابق عليه، وتناسبا مع حرص أبي قتادة علي أن يبادر النبي(ﷺ) بالصلاة على الميت، وقد كان له ما أراد، (فصلى عليه) بتلك الفاء ذات الومضة السريعة، واللمحة الخاطفة الكاشفة عن مبادرة النبي(ﷺ)بالصلاة عليه بمجرد استيثاقه من أبي قتادة .

ولكن النبي (ﷺ) الرءوف الرحيم الحريص على أمته، أحياء وأمواتا، ما زال مشغولا بأمر هذين الدرهمين ليضمن سلامة صاحبهما وتنعمه في قبره، فأخرج الترمذي عن أبي هريرة (رضي الله عنه) أن رسول الله (ﷺ) قال: ((نفس المؤمن معلقة بدينه حتى يقضي عنه))[1]، يعني أن "نفسه وهو في قبره معلقة بالدين، ولا تفرح بنعيم ولا تنبسط"[2]؛ وذلك لأن "أمرها موقوف، لا يحكم لها بنجاة ولا هلاك حتى ينظر هل يُقضى ما عليها من دين أم لا"[3]، وتكشف الأحداث عن ذلك، يقول الراوي: (ثم لقيه من الغد).

والتعبير بالحرف (ثم) وإن كان على حقيقته اللغوية من الدلالة على التراخي الزمني، إلا أننا نلمح فيه همسة رقيقة هادئة تتناسب مع لقائه (ﷺ) بأصحابه.

---

(١) سنن الترمذي : ٣/٣٩، كتاب : الجنائز، تحقيق وتعليق / إبراهيم عطوة، طبع مكتبة ومطبعة مصطفى البابا الحلبي بمصر، ط الثانية، ١٣٩٥ هـ – ١٩٧٥م، وقال: هذا حديث حسن.

(٢) شرح رياض الصالحين، محمد بن صالح بن محمد العثيمين – باب : تعجيل قضاء الدين عن الميت: ٤/ ٥٥٣ – الناشر: دار الوطن للنشر – الرياض – ط ١٤٢٦ هـ.

(٣) مرقاة المفاتيح – باب : السلم والرهن: ٥ / ١٩٤٨، وينظر : قوت المغتذى على جامع الترمذي جلال الدين السيوطي: ١ / ٣٢٦، إعداد الطالب: ناصر بن محمد الغريبي، رسالة دكتوراه – جامعة أم القرى – مكة المكرمة – كلية الدعوة – أصول الدين، قسم الكتاب والسنة، ١٤٢٤ هـ.

والتعبير بالفعل (لقيه) دون (ثم رآه) مثلا، فيه ما يكشف عن حرصه (ﷺ) على أن يلقاه وجها لوجه، إذ ربما تكون الرؤيا من بعيد، وهذا يتناسب مع شدة حرصه (ﷺ) من الاستيثاق من سداد أبي قتادة للدين، وأن يسمع منه ذلك بكل دقة.

كما أبان التقييد بقوله (من الغد) عن كثيرٍ من تلهفه (ﷺ)،وشدة شغفه من التأكد من سداد أبي قتادة له.

وتتبدى بلاغة العطف لفعل القول بالواو في قوله: (ثم لقيه من الغد وقال) في الدلالة على المقصد الأهم من البيان، وهو الدلالة على التأكيد والاستيثاق؛ وذلك لأن التعبير بالواو يؤذن بأن هذا القول خبر جديد، ولو جاء العطف بالفاء، ثم لقيه من الغد فقال: لآذن بأن القول مسبب عن اللقيا ومترتب عليه، ولولا اللقيا ما كان القول.

ثم يأتي سؤاله (ﷺ) لأبي قتادة بتلك اللفتة البلاغية الرائعة بقوله: (ما فعل الدينارانِ؟) وتلك صياغة كاشفة عن شدة اهتمامه (ﷺ) بشأن هذين الدينارين، وأنهما يشغلان باله، ويستحوذان على فكره، ولذلك عدل عن الإسناد الحقيقي: ما فعلتَ في الدينارانِ؟، وجعل (الدينارانِ) فاعلا، وذلك على سبيل المجاز العقلي، لعلاقة (المفعولية)؛ حيث أسند ما حقه أن يسند إلى المفعول إلى الفاعل، اهتمامًا بشأن المفعول، ولذلك أضفى عليه (ﷺ) تلك القوة الفاعلة، وفي هذا ما يثير خيالًا رائعًا في النفس، وكأن الدينارين فاعلين لو يدركان لذهبا طواعية إلى الدائن، رحمة بالميت وشفقه عليه.

ولا نعدم في تلك الصياغة ما يكشف عن رقي أخلاقه (ﷺ) وسمو أدبه، فلم يشأ أن يوجِّه الخطاب المباشر لأبي قتادة : ما فعلتَ في الدينارين، وذلك لأنه في الأصل متكفل بتحمل تبعة غيره، فالرجل جهده مشكور، وقدره محفوظ، وهذا منه (ﷺ) تمييز لأقدار الناس، ومخاطبتهم بما يليق بحالهم.

ويجيب أبو قتادة بأدب ورقي بالغ – كما هو شأن الصحابة جميعا –: "قال: يا رسول الله : إنما مات أمس"، يريد: أن الزمن قريب، فما هي إلا ساعات مضت، ولم يتمكن من دفعهما.

وهذا التأكيد الذي تبدَّى في أسلوب القصر بـ (إنما) ليس مراعاة لحال المخاطب لدفع شكه أو إنكاره، وإنما نلمح فيها لمسة اعتذار من أبي قتادة لرسول الله (ﷺ)، ومحاولة التماس بأن الوقت لم يسعفه، ومثلُ مواقف الاعتذار تحتاج – غالبًا – إلى التحدث بأسلوب هادئ رزين مفعمٍ بأدبِ ووقارِ المعتذرِ، وهذا ما أدته (إنما) بهمستها الرقيقة الهادئة الناعمة على أكمل وجه في هذا المقام.

وتتوالى الأحداث فبعدما أجاب أبو قتادة ملتمسا العذر من رسول الله (ﷺ) يقول جابر: (ثم لقيه من الغد، فقال: ما فعل الدينارن ؟) وفي إعادة نفس السؤال بذاته وصيغته إصرار من رسول الله (ﷺ) على أن يُذكِّر أبا قتادة بذات الدرهمين، وأنهما في بؤرة وعيه واهتمامه، ولم يخرجا من ذهنه وحيز اهتمامه ؛ تجسيدا لحرصه (ﷺ) وشفقته على هذا الميت، وفي تلك الإعادة أيضا تذكير بالغ لأبي قتادة بمسئولية تحمل هذين الدرهمين، حتى يبادر بأدائهما، يقول السيوطي في مزهره "من سنن العرب التكرير والإعادة؛ إرادة الإبلاغ بحسب العناية بالأمر"[1].

ويبادر أبو قتادة بالإجابة على رسول الله (ﷺ) يقول الراوي: (فقال: يا رسول الله قد قضيتهما) مؤكدا إجابته بـ (قد) لمزيد طمأنة رسول الله، وتناسبا مع ترقبه (ﷺ) وتطلعه إلى أن يبادر أبو قتادة بسدادهما؛ وذلك لأن (قد) تستعمل غالبا في الإخبار عن الأحداث المرتقبة، فيؤتى بها إذ كان السامع متشوفًا إلى شيءٍ ما يدور حوله السياق، يقول الخليل: "قد قعد، كلام لقوم

(١) المزهر في علوم اللغة للسيوطي : ١ / ٢٦٢، ت : فؤاد على منصور، دار الكتب العلمية، بيروت – ط الأولى – ١٤٨٣ هـ – ١٩٩٨م.

ينتظرون الخبر، ومنه قول المؤذن: قد قامت الصلاة؛ لأن الجماعة منتظرون"[1].

ويضاعف من دلالة (قد) على التوكيد دخولها على الفعل الماضي (قضيتهما) مما يفيد التحقيق والقطع بالسداد، كما آثر أبو قتادة التعبير بالفعل (قضيتهما) دون غيره من بدائله اللغوية؛ وذلك لما توحيه تلك المادة من حسم الأمر، وإنهائه والفراغ منه، يقول الراغب: "وقَضَى الدين: فصل الأمر فيه برده"[2].

ولعل القارئ الكريم يلحظ أن فعل القول الذي عبر به أبو قتادة في إجابته على النبي (ﷺ) في المرة الأولى لم يقرن بالفاء (قال : يا رسول الله، إنما مات أمس)، مما ينبئ بأنه قبل أن يجيب على النبي (ﷺ) أخذ قدْرًا ما من التفكير؛ لأنه في معرض التماس العذر وبيان علة عدم الأداء لهذين الدرهمين، في حين أنه لما أجاب على النبي(ﷺ) في المرة الثانية اقترن فعل القول بها، (فقال: يا رسول الله قد قضيتهما) تلاؤما مع سرعة الرد، فرحا بأداء ما ألزم به نفسه أمام الرسول (ﷺ).

وهنا تفوح معاني الطمأنينة، ونسائم البشر على رسول الله (ﷺ) فيقول: "الآن برَّدت عليه جلده ".

وهي جملة كنائية عن إزالة أدنى درجات العذاب عنه، وقد أبرزت هذا المعنى في صورة محسة، وفيها الدليل والبرهان الواضح على إبراء ذمة هذا الرجل من دينه تماما، وقد جاء التعبير بتلك الكناية في غاية المناسب للمقام، فالنبي (ﷺ) لم يقل: الآن أذهبت عنه ما هو فيه من العذاب، أو الآن أنقذته من النار، لأنه ليس في عذاب، أو نار حتى يزال عنه ذلك، كيف ذلك، والنبي

(١) البرهان في علوم القرآن للزركشي : (٤/ ٣٠٥) تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم – دار إحياء الكتب العربية عيسى البابى الحلبي وشركاه، الطبعة: الأولى، ١٣٧٦ هـ – ١٩٥٧ م.

(٢) المفردات: ٤٠٧ .

(ﷺ) صلى عليه، وصلاته سكن له ورحمة، كما حكى القرآن الكريم: {وَصَلِّ عَلَيْهِمْۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْۗ }[1]، ولكن بيانه (ﷺ) ينبئ عن أن هذا الرجل كان على شفا حفرة من نار، يتطاير ريحها، ويلسع لهيبها هذا الميت، وقد زال ذلك عنه، وأضحى في مأمن منه بسداد دينه .

وتعبيره (ﷺ) بظرف الزمان الدال على الوقت الحاضر (الآن)[2]، يعني أن الرجل بمجرد سداد دينه انتفى عنه العذاب بالكلية في لحظة السداد ذاتها، وكأن هذا الظرف كان نافذة الإنقاذ والنجدة له، وهذا مما يعكس رحمة الله به، فيا له من ظرف سعيد عليه، ومن هنا حُقَّ لبيان النبوة أن يقدمه في اللفظ؛ لأن تلك اللحظة كانت محل شغفه (ﷺ) وتعلقه وانتظاره، وكانت الأقرب إلى قلبه، ومن ثمَّ قدَّم الظرف الدال عليها في اللفظ.

وتصوّر لو أن أمرا قد تعلَّق به قلبك، وتطلعت إليه نفسك، ثم حدث فجأة، ما أرك إلا قائلًا في لحظتها: الآن قد حدث، مقدما التعبير بالظرف قبل الإخبار بالفعل؛ تعبيرا عن حبك وشدة تطلعك له .

وتقديم المتعلق (عليه) اهتمام بالرجل، ولأن مدار الكلام على إنقاذه، والتعبير بـ (جلده) يوحي بأن ما أصابه من العذاب ما هو إلا بصيص هيّنٌ منه، وقد زال عنه هذا القدر بمجرد السداد عنه .

وفي هذه الجملة من بيانه (ﷺ) ما يرشد المسلمين إلى أن من مات وعليه دين، وترك له قضاء فليبادر وليعجِّل ورثته بسداده، وأن من التزم بسداد دين من لم يترك قضاء له، عليه أن يعجل بالسداد، حتى يبرأ الميت من تبعته

(١) سورة التوبة، الآية :١٠٣.

(٢) ينظر : شرح التسهيل لابن مالك: (٢/ ٢١٨) تحقيق : د. عبد الرحمن السيد، د. محمد بدوي المختون، هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان، الطبعة: الأولى (١٤١٠هـ - ١٩٩٠م)

تماما، فإذا كان تحمل الدين مستحبا، ومن دلائل الإخوة الإيمانية، فالتعجيل بالسداد واجب.

وبتلك العبارة استدل العلماء على أن ذمة الميت لا تتحقق براءتها إلا بدفع الحق لأصحابه قال الشوكاني: "قوله:(الآن بردت عليه جلده) فيه دليل على أن خلوص الميت من ورطة الدين وبراءة ذمته على الحقيقة؛ ورفع العذاب عنه، إنما يكون بالقضاء عنه، لا بمجرد التحمل بالدين بلفظ الضمانة، ولهذا سارع النبي (ﷺ) إلى سؤال أبي قتادة في اليوم التالي عن القضاء، وفيه دليل على أنه يستحب للإمام أن يحُضَّ منْ تحمَّل عن ميت على الإسراع بالقضاء، وكذلك يستحب لسائر المسلمين؛ لأنه من المعاونة على الخير"(١)، وفي هذا غاية التحذير من الدين؛ لأن الإنسان متى استدان، وعلم أنه إذا مات ولم يجد من يتحمل عنه دينه ويقضيه، لم يفكر مرة واحدة، بل يفكر ألف مرة قبل أن يستدين.

وبها استدل الفقهاء – أيضا – على أن الدين لا يسقط عن المضمون عنه، وإن وجب في ذمة الضامن "لأنه وثيقة بدين في الذمة، فلا يسقط الدين عن الذمة كالرهن، ويجوز للمضمون له مطالبة الضامن والمضمون عنه؛ لأن الدين ثابت في ذمتهما فكان له مطالبتهما"(٢)، "وَأَمَّا صَلَاتُهُ عَلَى الْمَيِّتِ بَعْدَ امْتِنَاعِهِ مِنْها، فَلِأَنَّهُ بِالضَّمَانِ صَارَ كَمَنْ تَرَكَ وَفَاءً، فَلِذَلِكَ صَلَّى عَلَيْهِ"(٣).

(١) نيل الأوطار شرح منتقى الأخبار. محمد بن على الشوكاني : ٥ /٢٨٥، ت. أ/عصام الدين الصبابطي دار الحديث. القاهرة. ط. أولى ١٤٢١هـ / ٢٠٠٠م.

(٢) المجموع شرح المهذب،للإمام أبى زكريا محيى الدين يحيى بن شرف النووي – كتاب الصحابة – ٢٣/١٤، ط دار الفكر– بيروت، والمهذب في فقه الإمام الشافعي، لأبي إسحاق إبراهيم بن علي بن يوسف الفيروزآبادي الشيرازي (ت٤٧٦هـ): ١٥/٢، الناشر: دار الكتب العلمية.

(٣) الحاوي الكبير في فقه مذهب الإمام الشافعي وهو شرح مختصر المزني، للماوردي: ٤٣٦/٦، تحقيق: الشيخ / علي محمد معوض – والشيخ عادل أحمد عبد الموجود،=

وهذا الاستدلال يتناغم مع ما يرمي إليه الحديث، ومع ما يهدف إليه الدين الإسلامي من تضييق دائرة التعامل بالدين ؛ لأن الضامن متى علم أنه ملزم بالسداد، بل ومطالب كالمضمون عنه فكر مرارًا قبل أن يجامل المضمون عنه بالضمان، فلماذا يوقع نفسه في تلك النزاعات مع إمكانه أن يعيش مستريح النفس، هادئ البال ؟

وإذا كان النبي (ﷺ) بارعًا في استهلال بيانه بتلك الحركة الفعلية ذات الدلالة الموحية في (خطَّ خطا)، فإنه لم يكن أقل براعة في حسن انتهائه، حيث ضمَّنه ما يدل على مقصوده، وهو التشديد في عملية الدين ذاتها، والتشديد على المتكفل بسرعة المبادرة بالسداد، فكان ختامه بتلك الجملة (الآن بردت عليه جلده) مما يؤذن بانتهاء الكلام، ويقطع التطلع إلى غيره من كلام، والأمر كما يقول ابن رشيق: "وإذا كان أول الكلام مفتاحا له وجب أن يكون الآخر قفلا عليه"[1].

❁❁❁❁❁

=الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤١٩ هـ -١٩٩٩ م.

(١) العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده لابن رشيق القيرواني: ١/ ١٩٨، تحقيق: أ/ محمد محيي الدين عبد الحميد – دار الطلائع – القاهرة – ٢٠٠٦ م.

المقام الرابع

التحذير من نية عدم السداد للدين، وعاقبة ذلك

عن ابن عمر، قال: قال رسولُ الله (ﷺ) : «الدَّيْنُ دَيْنَانِ : فمَنْ مَاتَ وهُوَ يَنْوِي قَضَاءَهُ فَأَنَا وَلِيُّهُ، ومَنْ مَاتَ ولاَ يَنْوِي قَضَاءَهُ فَذَلِكَ الَّذِي يُؤْخَذُ مِنْ حَسَنَاتِهِ؛ لَيْسَ يَوْمَئِذٍ دِينَارٌ ولاَ دِرْهَمٌ» [(١)] .

إذا كان الإسلام حث المدين على المبادرة بسداد دينه ما أمكن قبل أن يباغته الموت، حتى يسلم من تبعته، فإن الإنسان قد يموت ولم يتمكن من سداد دينه، فهل تغلق أبواب الرحمة في وجهه ويأثم ويعاقب بهذا الدين ؟ مع أنه ما لجأ إليه إلا لحاجة واضطرار، ولو أمد الله له في العمر، ووسع عليه بالقدرة على سداد هذا الدين لكان أول شيء يقوم به هو أن يعتق نفسه من ربقة هذا الدين، ويوفي الدائن حقه، شاكرًا له فضله، والله (ﷻ) أعلم بضمائر العباد، وما تكنه نفوسهم {أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٤﴾} [(٢)] .

وهذا الهدي النبوي الذي بين أيدينا يعالج أحوال هذه النماذج، بما يبرز سعة رحمة الله بهم، وبما يكشف عن مدى حرصه (ﷺ) على أن يطمئن أمثال هؤلاء في عدم تخليه عنهم، وأن الله (ﷻ) جاعل لهم من أمر دَيْنِهم مخرجًا ويسرًا، وفي الوقت ذاته يبث هذا الحديث الرعب والتهديد في نفوس هؤلاء الذين يبغون أكل أموال الناس عن طريق الدين ويحذرهم بأن الله (ﷻ) سيقتص منهم لغارميهم يوم لا يكون دينار ولا درهم.

وقد استهل النبي (ﷺ) بيانه بتلك الجملة الابتدائية (الدين دينان) وقد جاءت خالية من وسائل التوكيد، وذلك لما تحمله من خبر ابتدائي، ألقى إلى

---

(١) المعجم الكبير للطبراني، مسند عبد الله بن عمر بن الخطاب: ١٣/ ٣٣٦، رقم الحديث: ١٤١٤٦، حكم الألباني: صحيح . تحقيق: حمدي بن عبد المجيد السلفي، دار النشر: مكتبة ابن تيمية – القاهرة، الطبعة: الثانية.

(٢) سورة الملك، الآية :١٤.

خالي الذهن، ومجيء تلك الجملة هكذا خالية من التأكيد مما يتناسب مع ما يقرره (ﷺ) من حقيقة تلك الأحكام الشرعية والتي يجهلها سائر الناس، والغرض من هذا الخبر هو فائدة الخبر؛ لأن المخاطبين لا يعلمون مضمون ما تضمنه من حكم، فالنبي (ﷺ) في هذا الحديث بصدد الكشف للصحابة والسامعين ومن يأتي بعدهم من الأمة عن أحكام، وأمور شرعية تتعلق بالدين لم يكشف عنها من قبل.

وفي سبيل تمكين تلك المعاني، وما تتضمنه من أحكام، في نفوس المخاطبين وكل سامع لبيانه (ﷺ) نراه يبرزها في ثوب هذا اللون البلاغي وهو الإيضاح بعد الإبهام، أو التفصيل بعد الإجمال، وذلك لإثارة التشويق، والترقب في النفوس، حيث شوق النبي (ﷺ) إلى معرفة هذين الدينين، وأبهم ما يتعلق بكل نوع من الأحكام، فتطلعت النفوس إلى الإيضاح الذي جاء بعد ذلك في قوله: (فمن مات ..).

والغرض من هذا اللون من ألوان التشويق "أن يتأكد المعنى لدى السامع، وأن يقر بداخله؛ لأنه من الأمور المهمة التي تحتاج إلى تأكيد وتثبت؛ ليشتد الحرص على امتثالها وإجابتها"(١).

فالمعنى إذا ألقي على سبيل الإجمال والإبهام، تشوقت النفس إلى معرفته، وتطلعت إلى الوقوف على مراده على سبيل التفصيل والتوضيح لإشباع رغبتها لما تحس به من نقص في الفهم، فإذا ألقي عليها المعنى بعد ذلك موضَّحا ومبَّينا، أو مفسرا ومفصلا، تمكن فيها فضل تمكن، وكان إدراكها للمراد منه حينئذ أتم وأوفى.

كما أضفى النبي (ﷺ) على بيانه لونا آخر من التشويق، حيث عبر بلفظ (الدين) معرفا باللام لاستغراق جنس الدين، واستيعاب كل صوره وأشكاله، قليله وكثيره، مما جعل النفوس أكثر تهيئة وتشوقا للخبر، فإذا به هو الآخر

(١) التشويق في الحديث النبوي، طرقه وأغراضه، د / بسيوني عبد الفتاح فيود : ٥٦ .

يحمل فيضًا من التشويق والإثارة (دينان) هكذا بلفظ النكرة بما تحمله في طياتها من غموض وإبهام يحتاج إلى إيضاح وبيان.

كما نلحظ أن تعبيره (ﷺ) بلفظ المسند (دينان) جاء من جنس لفظ المسند إليه، مع إمكان أن يخبر عن المسند إليه بقوله : الدين نوعان، وذلك مما يتناسب مع رغبته (ﷺ) في تقرير تلك الأحكام الشرعية، والتي تتعلق بالدين، بأسلوب يتسم بالقطع والبت والحسم، والتأكيد على أن الدين وإن تنوعت نوايا المدين تجاهه من ناحية السداد وعدمه فهو لا يخرج عن كونه دينا، ينبغي أن يوفَّى إلى صاحبه.

وبعد أن أثار النبي (ﷺ) شغف المتلقي، وهيأ ذهنه أتم تهيئة لاستقبال المعنى بما أضفاه من إجمال وإبهام، كشف بعد ذلك عن أحد هذين الدينين معبرا بالفاء التفسيرية (فمن مات ...) لتكون بذرة وعروة لتفصيل ما أجمله، ثم أعقبها بأداة الشرط (من) بما تفيضه من تشويق هي الأخرى ؛ إذ هي مبهمة في زمن الربط، فلا تدل على زمن معين من أزمان ربط الجواب بالشرط[1]، وهذا مما يتناسب مع سعة رحمته (ﷺ) بجميع أفراد أمته في كل زمان؛ لأن هذا الحكم الذي سيكشف عنه بعد ذلك ليس قاصرا على مدة حياته فقط؛ وذلك لأن (من) بدلالتها المطلقة الواسعة تعطي عمومية هذا الحكم في كل زمان ومكان.

وجملة الشرط (فمن مات وهو ينوي قضاءه فأنا وليه) جملة كبرى حوت بداخلها جملة صغرى، وهي جملة الحال (وهو ينوي قضاءه)، وقد جاءت مقترنة بالواو، حيث قصد النبي (ﷺ) أن يستأنف بها هذا الخبر، غير قاصد أن يضمها إلى الفعل الأول في إثبات واحد[2]، وذلك لأنها هي محور المعنى ومصبه ومقصده، وهي قيد دقيق في إبراز المقصود؛ لأن مضمون الكلام

(١) ينظر: حاشية الصبان على شروح الأشموني لألفية لابن مالك: ٤ / ١٧، ت / طه عبد الرءوف سعد، المكتبة التوفيقية – بدون .

(٢) ينظر: دلائل الإعجاز: ٢١٣.

مرتبط بها، ولولاها لا يتم المعنى الذي قصده (ﷺ) ولا يكشف عنه، وقد صاغها بيانه (ﷺ) صياغة مؤكدة ؛ حيث قدم فيها المسند إليه (هو) على خبره الفعلي، فتأكد الخبر مرتين، وهذا مما يتناسب مع تقرير صدق نية هذا المدين في سداد دينه، وأنه لو امتدت به الحياة، وتيسرت له سبل السداد، لم يتوان ولو للحظة واحدة، والتعبير بالفعل المضارع (ينوي) دلالة على تجدد نية هذا الرجل، وأن الأمل في السداد، والرغبة الصادقة فيه، لم تفارقه حتى آخر نفس من أنفاسه، ولعل هذا هو السر في أنه (ﷺ) جعل فعل النية في قوله: (وهو ينوي) في بنية جملة الحال، ولم يجعله فعل الشرط، فيكون بناء نظمه: (فمن نوى قضاءه ومات فأنا وليه)، وذلك لأن دلالة هذا البناء تشعر بأن نية السداد كانت قاصرة على وقت الموت فحسب، دون ما جاء عليه بيانه (ﷺ)، وفي تعبيره (ﷺ) عن المفعول بلفظ (قضاءه) دون غيره من بدائله اللغوية، مما يشعر برغبة هذا المدين في إيفاء الدائن حقه كاملا، دون أن ينقص منه شيئا، "**قَالَ الزُّهْرِيُّ: القَضَاء فِي اللُّغَةِ عَلَى وُجُوهٍ مَرْجِعُهَا إِلى انْقِطَاعِ الشَّيْءِ وَتَمَامِهِ. وكلُّ مَا أُحْكِم عَمَلُهُ أَو أُتِمَّ أَو خُتِمَ أَو أُدِّيَ أَداء أَو أُوجِبَ أَو أُعْلِمَ أَو أُنْفِذَ أَو أُمْضِيَ فَقَدْ قُضِيَ**"(١).

وبعد تلك الجملة الحالية يأتي جواب الشرط، وقد اقترن برباط قوي محكم (الفاء) لتربط بين أجزاء المعنى، وتوثق عراه؛ وذلك لأن الجواب لا يصلح لأن يقع شرطا لكونه جملة اسمية(٢).

وفي تعبيره (ﷺ) في جواب الشرط بالمسند إليه (أنا) معرفا بضميره، والضمير أعرف المعارف، في ظل سياق الوعد منه بولاية هذا الدين، مما يتناسب مع زف البشرى إلى هذا المدين، والترويح عنه، وإيجاد مخرج له من

(١) لسان العرب: (قضى).
(٢) ينظر: مغني اللبيب عن كتب الأعاريب – ابن هشام: ١/ ٢٥٥، ت: د/ صلاح عبد العزيز السيد – دار السلام – ط الأولى – ١٤٢٤ هـ – ٢٠٠٤ م .

محنته، ونجدته من ربقة هذا الدين الذي صحِبه حتى لقى ربه (ﷻ) دون قصد منه، وفي التعبير بهذا الضمير – أيضا – إعلان صريح وواضح بأن رسول الله (ﷺ) هو الذي سيكفُله عنه أمنةً منه، ورحمة وشفقةً به .

وقد جاء التعبير بجملة الجزاء في ثوب الاسمية، دلالة على معنى الثبوت والدوام، وتأكيد مقصده (ﷺ) في تحمله لدين هذا المدين، وطمأنة قلبه هو وأمثاله من أصحاب النوايا الصادقة في السداد، وترسيخ هذا الوعد في نفوسهم.

والإضافة في قوله (ﷺ): (وليه) على معنى اللام، أي : فأنا ولي له، وولايته (ﷺ) لهذا الدين تعني ولاية السداد، وتحمل هذا الدين عن المدين، جزاء نيته الصادقة، بدفعه إلى صاحبه في الدنيا ؛ وذلك لأن الأمر مرتبط بمصالح العباد، بل بأدق وأهم ما يتعلق بحركة سعيهم في الحياة، وهو المال، فما ذنب هذا المدين في أن تضيع عليه حقوقه، وما قصد إلا الخير والعون والتنفيس عن المدين؟.

ويدعم هذا الوجه ما أخرجه البخاري من حديث أبي هريرة (رضي الله عنه) أنه (ﷺ) قال: ((**مَا مِنْ مُؤْمِنٍ إلا أَنَا أَوْلَى بِهِ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ، اقْرَءُوا إِنْ شِئْتُمْ {ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ}**[1] **فَأَيُّمَا مُؤْمِنٍ مَاتَ وَتَرَكَ مَالا، فَلْيَرِثْهُ عَصَبَتُهُ مَنْ كَانُوا، وَمَنْ تَرَكَ دَيْنًا، أَوْ ضَيَاعًا**[2]**، فَلْيَأْتِنِي، فَأَنَا مَوْلاهُ**"[3].

(١) سورة الأحزاب، من الآية :٦.

(٢) والضياع : العيال نفسه، وأصله : مصدر ضاع يضيع ضياعا فسمي العيال بالمصدر، كما تقول : من مات فترك فقرا أي فقراء، وإن قرئ بكسر الضاد كان جمع ضائع، كجائع وجياع . ينظر : لسان العرب : (ضيع) .

(٣) صحيح البخاري، كتاب الاستقراض وأداء الديون والحجر والتفليس، باب الصلاة على من ترك دينا، رقم : (٢٢٦٩) .

ويدعِّمُه – أيضا – ما أخرجه الإمام أحمد: ((**مَنْ تَرَكَ مَالًا فَلِأَهْلِهِ، وَمَنْ تَرَكَ دَيْنًا أَوْ ضَيَاعًا فَإِلَيَّ أَوْ عَلَيَّ، وَأَنَا وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ**))[1].

فقوله (ﷺ) : (فَإِلَيَّ أَوْ عَلَيَّ) صريح وواضح في تحمله (ﷺ) حقيقة لهذا الدين.

وقد يكون المراد بولايته (ﷺ) – أيضا – الشفاعة عند الله (ﷻ) لهذا المدين يوم القيامة، ويدعم هذا الوجه أيضا ما أخرجه ابن ماجه من حديث عائشة ((مَنْ حَمَلَ مِنْ أُمَّتِي دَيْنًا ثُمَّ جَهِدَ فِي قَضَائِهِ فَمَاتَ وَلَمْ يَقْضِهِ فَأَنَا وَلِيُّهُ))[2]، فتقييده بقوله (ﷺ) : (من أمتي) صريح وواضح في أنه يشمل الأمة كلها حتى يرث الله الأرض ومن عليها، وليس الاقتصار على زمن حياته (ﷺ).

وقد أضاف حديث السيدة عائشة السابق مدى معاناة هذا المدين في السداد، وأنه بذل غاية جهده في الاحتشاد ليوفي الدائن حقه، ولكن حال الموت بينه وبين نيته الصادقة تلك كما أن تعبيره (ﷺ) بفعل الشرط (حمل) مما يوحي بشدة وطأة الظروف على هذا المدين، ولولاها ما لجأ إلى هذا الدين، كما يوحي بثقل الدين في نفسه، وأنه يأمل الخلاص منه بالسداد، وتوفية صاحب الدين حقه، ومن هذا استحق ولاية رسول الله (ﷺ) عنه في السداد.

والوجهان المذكوران يفيضان ببالغ شفقته (ﷺ) على أفراد أمته من هؤلاء المدينين ومدى حرصه على أن يشملهم عفو الله، وتتداركهم رحمته لحسن

---

(١) مسند الإمام أحمد بن حنبل، مسند جابر بن عبد الله – ﷺ–، ٣/٣٧١، رقم : (١٥٠٢٦) تعليق شعيب الأرناؤوط: إسناده صحيح على شرط مسلم، رجاله ثقات، رجال الشيخين غير جعفر وهو ابن محمد الصادق فقد روى له البخاري في الأدب واحتج به مسلم.

(٢) مسند الإمام أحمد بن حنبل، مسند النساء، مُسْنَدُ الصِّدِّيقَةِ عَائِشَةَ بِنْتِ الصِّدِّيقِ – رَضِيَ اللهُ عَنْهَا–، رقم : (٢٤٤٥٥) : (٤٠/ ٥١١) .

نياتهم، وهذا مما يتسق مع المبدأ الإسلامي القائم على أن نية المرء خير من عمله "فمناط الجزاء ومناط الثواب هو في النية الدافعة والباعثة على العمل"[١]، ولا عجب أن نجد علماءنا يقولون: "إن قول الرسول (ﷺ): ((إنما الأعمال بالنيات ولكل امرئ ما نوى))[٢] نصف الدين، ونصفه الآخر قوله (ﷺ): ((من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو رد))[٣]؛ لأن الأول يتضمن المقاصد، والثاني يتضمن المتابعة، وكلاهما شرط في صلاح العمل وتهيئته للقبول"[٤].

ويمكن الجمع بين الوجهين بأنه (ﷺ) سيتولى السداد بنفسه في حال حياته عن المدينين، وإذا تُوُفِّي تولَّى السداد الوليُّ أو الحاكمُ من بيت المال، فإذا لم يكن بيتُ مالٍ للمسلمين، ولم يُسدَّد عن المدين دينُه، والله (ﷻ) يعلم بنيته في قصد السداد، قضى الله (ﷻ) عنه بذاته، بدليل ما أخرجه الحاكم: ((من تداين بداين في نفسه وفاؤه، ثم مات تجاوز الله عنه، وأرضى غريمه بما شاء))[٥]، وفي حديث عبد الرحمن بن أبي بكر: ((يؤتى بصاحب الدين يوم القيامة فيقول الله فيم أتلفت أموال الناس؟ فيقول: يا رب إنك تعلم أنه أتى على إما حرق، وإما غرق، فيقول : فإني سأقْضى عنك اليوم فَيقْضِي عنه))[٦].

---

(١) تفسير الشعراوي، للشيخ محمد متولي الشعراوي: ٥/ ٢٦٨، مطابع أخبار اليوم، ١٩٩٧م.

(٢) رواه ابن ماجه، كتاب: الزهد، باب: النية، رقم (٤٢٢٧)، قال الشيخ الألباني: صحيح.

(٣) رواه مسلم، كتاب: الأقضية، باب: نقض الأحكام الباطلة ورد محدثات الأمور، ح (١٧١٨).

(٤) ذم الفرقة والاختلاف في الكتاب والسنة، عبد الله بن محمد الغنيمان، الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، الطبعة: السنة السابعة عشرة (العدد الخامس والستون، والسادس والستون) محرم – جمادى الآخرة ١٤٠٥هـ-١٩٨٥م .

(٥) المعجم الكبير للطبراني (٨/ ٢٤٠).

(٦) أخرجه الطبراني كما في مجمع الزوائد (١٣٣/٤).

فالأحاديث كاشفة عن أن رحمة الله لا تنقطع عن مثل هؤلاء المدينين الذين صدَقت نياتُهم، وحَسُنت سرائرُهم، وخلُصت عزيمتُهم في السداد بأن الله (ﷻ) هو الذي سيقضي عنهم هذا الدين.

ويعلق الإمام الشوكاني – رحمه الله – على هذه الأحاديث الواردة في هذا المعنى بقوله: "وفي معنى ذلك عدة أحاديث ثبتت عنه (ﷺ) أنه قالها بعد أن كان يمتنع من الصلاة على المديون، فلما فتح الله عليه البلاد، وكثرت الأموال، صلى على من مات مديونا وقضى عنه، وذلك مشعر بأن من مات مديونا استحق أن يقضي عنه دينه من بيت مال المسلمين، وهو أحد المصارف الثمانية، فلا يسقط حقه بالموت، ودعوى من ادَّعى اختصاصَه (ﷺ) بذلك ساقطة ... وقد أخرج الطبراني من حديث سلمان ما يدل على انتفاء هذه الخصوصية المدعاة، ولفظه: ((من ترك مالا فلورثته، ومن ترك دينا فعليَّ، وعلى الولاة من بعدي من بيت المال))[1].

وهكذا نجد تلك الأحاديث لا تحتمل فيما بينها لبسًا، أو تعارضًا وتناقضًا، بل تتكاتف ليفسر بعضها بعضا، في محاولة لاستقصاء جوانب المعنى، وإبراز جميع الأحكام المتعلقة به، والإحاطة بجميع صوره ومراحله الزمنية، وكلها تتناغم في إبراز سعة رحمة الله (ﷻ) بهذا المدين الذي حسُنَت نيتهُ في السداد.

وعلى هذا نستطيع القول: إن تدبر النص في البيان النبوي يقتضي من الدارس أن يسعى إلى سبر أغوار ذلك النص، فيجمع إليه النصوص الأخرى الثابتة في بيان النبوة في موضوع النص وبابه، فينظر فيها، ويقارن بينها، فتكون دراسة أي نص دراسةً سياقيةً شاملةً السياق الجزئي للنص الرئيس في الدراسة (السياق الأفقي)، والسياق الكلي الماثل في سياق الجنس البياني الذي

(١) نيل الأوطار للشوكاني : ٤/٣١، وينظر: فقه السنة، للسيد سابق: ١/ ٥٠٤، دار الكتاب العربي – بيروت – لبنان – ط٣ – ١٣٩٧ هـ – ١٩٧٧ م، والحديث في المعجم الكبير للطبراني: (٦/ ٢٤٠).

هو من بابه النص المدروس (السياق الرأسي) وهذا يجعلنا نقترب من الربط بين السياق المقامي (الخارجي)، والسياق المقالي (اللغوي) لتلك الأحاديث.

ومما لاشك فيه أن الربط بين هذين النوعين من السياقين حال تناغمهما يعين على فتح طاقات دلالية رحبة ما كانت لتوجد بدون تفقه وتفهم العالم الخارجي الذي ينبعث فيه النص ويشع، والوعي بهذا الأفق الحضاري (العالم الخارجي) يعد رافدا مهما من روافد فهم المعنى واستنباطه من تلك البنية اللغوية، ومن ثمَّ كان من الجدير بالعناية في فقه المعنى في بيان النبوة الوعي البالغ بدقائق حركة الحياة زمن الوحي في الجزيرة العربية وما حولها، فيكون له في فقه سيرة رسول الله (ﷺ) جهد تحصيلي وتأويلي بالغ، وكذلك معرفة خصائصه الذاتية والدعوية، وخصائص منهجه (ﷺ) في تقويم حركة حياة الصحابة من حوله والأمة من بعدهم، ودفع تلك الحركة إلى آفاق أسمق وأرحب(١).

وبعد أن بين النبي (ﷺ) حال من صلحت نيته، حيث كانت لديه الرغبة الأكيدة في توفية الناس حقوقهم، ولكن حالت المنية بينه وبين أمنيته، وطمأنه بتولّيه سداد ما عليه من دين، أو قضاء الله عنه إياه رحمة ولطفًا به، كان من المناسب أن يكشف عن النوع الأخير من الدين، قاصدا أصحابه الذين بيَّتوا نية عدم السداد حتى آخر أنفاسهم، فكانت ملاقاتهم لربهم، وهذا الدين ما زال في ربقة أعناقهم، فقال: (ومن مات، ولا ينوي قضاءه، فذلك الذي يؤخذ من حسناته..) وقد عطفت هذه الجملة على سابقتها للتوسط بين الكمالين، لاتفاقهما في الخبرية لفظا ومعنى، مع ما بينهما من تناسب في إظهار الأحكام المتعلقة بالدين من ناحية نية السداد وعدمها، في محاولة منه (ﷺ) في استقصاء أطراف المعنى، والإحاطة بجميع جوانبه، وبيان الأحكام المتعلقة به.

(١) ينظر: فقه بيان النبوة منهجا وحركة : ١٤ – ١٦ .

وإنما قدَّم النبي (ﷺ) النوع الأول، لأن الأصل أن تقدم نية القضاء، وأن يكون حسن الظن بالناس هو الأسلوب السائد في حركة التعاملات المادية وغيرها فيما بينهم، وأن يكون هذا المعنى هو الغالب على حس وشعور كل مسلم اضطرته الظروف للاستدانة.

وبإبراز القسم الثاني للدين اكتسى بيانه (ﷺ) ثوب المقابلة، حيث قابل بين هذا الذي بيَّت نية السداد فكانت عناية الله معه، وتولَّى رسولَه السدادَ عنه، وبين هذا الذي أضمر السوء فأُخِذَ بجريرة معصيته، وفاسد نيته، وكانت لهذه المقابلة دورها في تأكيد المعنى وإبرازه، وتحسين إيقاعه، وإثارة الوعي إلى ما بين الكلام من تقابل، فالمقابلة كما يقول الأستاذ/الشايب: "نوع من التحدي بين المعاني، والمنافسة في الظهور، وهذه قوة للمعاني"(١)، وبفضل هذه المقابلة في هذا السياق تحددت المعاني المرادة في الذهن، والأحكام الشرعية المتعلقة بكل طرف تحديدا قويا، حتى يكون كل مدين على بينة من أمره، فتتشكل في نفسه وفي ضميره الرغبة الأكيدة في السداد، وفي الوقت ذاته ينفِر من أن تداعبه نفسه الأمارة بالسوء بحب التفلت من إعطاء الناس حقوقهم في كل لحظة.

وقد أبرز النبي (ﷺ) بيانه فيما يتعلق بهذا الصنف الثاني من المدينين في أسلوب الشرط، وكان بناؤه كبناء سابقه، مشتملًا على أداة الشرط، وفعل الشرط ذاتهما (ومن مات) يتلوهما جملة الحال أيضا (ولا ينوي قضاءه)، ولكن لما اختلفت النية، وجاءت منفية، كان من مقتضى العدالة الإلهية أن يختلف جواب الشرط – أيضًا – عن سابقه، فالجواب الأول (فأنا وليه) يفيض أمنا وطمأنينة، ورحمة وسكينة، ووعدًا وتبشيرًا، والجواب الثاني: (فذلك الذي يؤخذ من حسناته). ينطق بالوعيد والترهيب، والإرعاد والتخويف.

(١) الأسلوب، أ. أحمد الشايب : ١٩٧، مكتبة النهضة المصرية – ط :٧، ١٣٩٦ هـ – ١٩٧٦ م.

والتعبير بالفعل المضارع في جملة الشرط الثانية (ومن مات ولا ينوي ...) وإن كان يوحي باستحضار تلك النية السيئة بعدم السداد لحظة الموت، وتجددها حتى مفارقة الحياة لهذا المدين، إلا أن السياق ينبئ بغاية التنفير، والحث على الإقلاع عن تلك النية السيئة في كل لحظة من لحظات الاستدانة، وذلك لأن الموت المفاد من فعل الشرط (مات) ليس له زمن محدد يقع فيه، ومن هنا آثر بيان النبوة النفي بـ (لا)، دون النفي بغيرها؛ وذلك لأن النفي بـ (لا) في هذا المقام أبلغ، لامتداد زمن النفي فيها دون غيرها، فمن خواص حروف النفي أنها تنفي ما قرب، ولا يمتد معنى النفي كامتداد معنى النفي في حرف (لا)، وذلك لأن الألفاظ مشاكلة لمعانيها، وحرف (لا) نجد في نهايته (ألفا) يمتد بها الصوت ما لم يقطعه ضيق النفس، فآذن امتداد لفظها بامتداد معناها[1].

وقد اقترن جواب الشرط (فذلك الذي ...) بالفاء ؛ لأنه جملة اسمية لا تصلح لأن تقع شرطا، والتعبير بتلك الجملة الاسمية مما يفيد التقرير والتأكيد على ثبوت هذا الجزاء العادل، والقصاص الرادع لهذا المدين، ولكل من تسول له نفسه الأمارة بالسوء في أية لحظة بعدم سداد الدين وتوفية الناس حقوقهم.

والتعبير باسم الإشارة (ذلك) فيه تمييز بالغ، وتحذير واضح لهذا الجنس السيئ من المدينين لمزيد من العناية بالحكم الواقع عليهم، وذلك لاتصافهم بتلك النية السيئة، وأنهم من أجلها كانوا أهلا لأن ينزل بهم هذا العقاب الرادع، والتعبير بلام البعد فيها مما يشعر ببعدهم عن رحمة الله (ﷻ)، حيث خُلِّي بينهم وبين نيتهم الفاسدة، وصاروا بعيدين عن ساحة الغوث والنجدة والإعانة من الله (ﷻ).

وتتنامى لغة التنفير والترهيب بالإخبار عن اسم الإشارة باسم الموصول (الذي) لتقرير مضمون صلته، فتقرع بجرسها كل سامع، وتتمكن من نفسه

(١) ينظر: بدائع الفوائد، لابن القيم : ١ / ١٠٢ .

فضل تمكن، فيقلع هذا المدين عما أضمرته نفسه من غباء وعناد، وسوء وفساد، عن طريق أكل أموال الدائنين، ومقابلة إحسانهم بأبشع صور الإساءة والخيانة.

كما أن التعبير بالاسم الموصول (الذي) في ظل هذا السياق فيه ما يوحي بأن هذا الذي خبث نيته، فأضمر عدم السداد هو الذي تعين بتلك الصلة، وكأن حاله أومأ إلى مآله؛ حيث استشعرت النفوس بأن جزاءه سيكون من جنس الشر والوبال قبل أن يصرح به بيانه (ﷺ)، وهذا ما أفهمه من قول الإمام عبد القاهر – رحمه الله – عن بلاغة التعبير بالاسم الموصول (الذي) ومقامه الذي يؤثر استعماله فيه يقول: "وعلى الجملة، فكل عاقل يعلم بون ما بين الخبر بالجملة مع الذي وبينها مع غير الذي. فليس من أحد به طرق إلا وهو لا يشك أن ليس المعنى في قولك: هذا الذي قدم رسولاً من الحضرة كالمعنى إذا قلت: هذا قدم رسولاً من الحضرة، ولا: هذا الذي يسكن في محلة كذا كقولك: هذا يسكن محلة كذا. وليس ذاك إلا أنك في قولك: هذا قدم رسولاً من الحضرة مبتدىء خبراً بأمر لم يبلغ السامع، ولم يبلغه ولم يعلمه أصلاً. وفي قولك: هذا الذي قدم رسولاً معلم في أمر قد بلغه أن هذا صاحبه، فلم يخل إذاً من الذي بدأنا به في أمر الجملة مع الذي، من أنه ينبغي أن تكون جملة قد سبق من السامع علم بها. فاعرفه"(١).

وكان من عطاء التعبير بالاسم الموصول (الذي) في هذا السياق – أيضا – إفادة القصر عن طريق تعريف الطرفين؛ حيث جاء المسند إليه معرفًا بالإشارة (كذلك)، كما جاء المسند معرفًا بالموصولية، مما أفاد بأن هذا الجزاء مقصور على من فسدت نيته في السداد، قصر صفة على موصوف، قصرًا إضافيًا قصر إفراد؛ حيث أفرد به هذا الجزاء الرادع ذمًا وتشهيرًا وتنفيرًا من

(١) دلائل الإعجاز: ٢٠١.

حاله، وترهيبا من عاقبته ومآله، وطمأنينة ووعدًا وتبشيرًا لمن صلحت نيته بالسداد، ونوى القضاء والإيفاء .

وجملة الصلة (يؤخذ) ... فيها تحذير بارق، وترهيب راعد، فبناء الفعل لما لم يسم فاعله، فيه إشعار بالقدرة الإلهية في الإنصاف للدائن، وإعطائه حقه بالقصاص من مدينه في الآخرة، وفيها معنى القهر والجبر، فما كان يؤده اختيارا في الدنيا، فها هو يؤخذ منه يوم القيامة قهرًا وإجبارًا، وليته كان من المال ولكنه (من حسناته) تلك التي كان يترجَّاها، ويتمناها، ويؤمِّل عليها في دخول الجنة، فإذا به يحرم منها، لتكون من حظ دائنيه، في موقف صعب أعز ما يحتاج فيه العبد إلى تلك الحسنات، وفي هذا غاية التحسير له ؛ حيث امتنع عن أداء ما لا قيمة له في ميزان الرحمن، فأخذ منه العزيز الجبار أعزَّ ما تترجاه النفوس، يوم لا ينفع فيه درهم ولا دينار .

والتعبير بـ (مِن) التبعيضية من مقتضى العدالة الإلهية بأن حسناته لا تؤخذ كلها، بل ما يعادل مقدار دينه فقط، فهو وإن ظَلَم الخلق في الدنيا، فلن تظلمه العدالةُ السماوية.

فإن قيل: فإن فنيت حسناته، ولم توف الدائن حقه قلتُ : صار حاله حال المفلس، فيؤخذ من سيئات دائنه، وتطرح في ميزانه يوم القيامة، ويزكي هذا ما راوه ابن عمر قال: سمعت رسول الله (ﷺ) يقول: ((من مات وعليه دين، ليس بالدينار ولا بالدرهم، ولكنها الحسنات والسيئات))[1]، وقد أبان هذا الحديث ما أجمله الحديث محل الدراسة، فضلا عما في هذا الحديث من التنفير من الدين عموما والحث على المبادرة بسداده، دون التعرض لنية المدين من ناحية السداد وعدمه، كما صعَّد التعبير بضمير الشأن في قوله (ﷺ): (ولكنها الحسنات والسيئات) من معاني القهر والتحسير لهذا المدين، وأشار إلى خطورة الموقف الذي وضع نفسه فيه أمام الله (ﷻ)، لأن طريقة

(١) مسند أحمد: رقم: ٥٣٨٥، (٥/ ٤٨).

السداد وتوفية الناس حقهم، تعدت الدينار والدرهم الفاني، وكانت بما هو أهم وأخطر في ميزان العدل والقصاص.

وإذا كان نظم بيانه (ﷺ) في الحديث السابق سلك طريق القصر عن طريق العطف بـ (لكن)؛ حيث قصر سداد هذا الدين على الحسنات والسيئات، ونفاه عن الدينار والدرهم، فقد جاء التعبير عن هذا المعنى في ثوب القصر – أيضًا – ولكن عن طريق (إنما) وذلك في حديث الطبراني – رحمه الله –: «**لَا تَمُوتَنَّ وَعَلَيْكَ دَيْنٌ فَإِنَّمَا هِيَ الْحَسَنَاتُ، وَالسَّيِّئَاتُ لَيْسَ ثَمَّ دِينَارٌ وَلَا دِرْهَمٌ جَزَاءٌ، وَقَضَاءٌ وَلَيْسَ يَظْلِمُ أَحَدًا**»[1]، وقد جاء التعبير في هذا الحديث أيضا بضمير الشأن، وذلك في قوله (ﷺ): " فإنما هي ..."، وكأن فطرة اللغة تأبى على لسانه (ﷺ) إلا أن يصاغ هذا المعنى صياغة قوية لافتة تتناسب مع مقصده في التنبيه على خطورة الدين والتحذير من أن يموت المرء وهو على تلك الحال؛ إذ لا شيء أخطر على المرء يوم القيامة من أن يفقد من رصيد حسناته أو أن يتحمل شيئا من سيئات الآخرين؛ جزاء وقصاصًا لما عليه في ذمته لهم من ديون، فضلا عما في التعبير بضمير الشأن في الحديثين من إثارة النفوس وجعلها تتطلع وتتشوق إلى ما يحمله هذا الضمير من إبهام وغموض، حتى إذا جاء عقبه ما يوضحه ويزيل إبهامه تمكن في الذهن فضل تمكن "والمتكلم المبين حين يأتي بضمير الشأن كأنه يطرق في أذن السامع طرقة تنبيه ويقول: انتبه؛ لأنه سيأتيك من الكلام ما يجب الحفاوة به"[2].

ومن الملاحظ أن النبي (ﷺ) لم يسلك في نظم بيانه في الحديث السابق معبرا بأسلوب الشرط كسابقه، بل عبَّر بأسلوب النهي (لا تموتن وعليك دين) مما علا بلهجة التحذير والتخويف والتنبيه على خطورة الدين؛ فالتعبير بـ (لا)

(١) المعجم الكبير للطبراني: (١٢/ ٤٠٨).
(٢) شرح أحاديث من صحيح البخاري: ٣٧٩.

الناهية – في هذا السياق – وما فيها من امتداد الصوت وإطالة النطق، وإشباع المد، كأنه صيحة تحذير مدوية، وقد جاء هذا النهي موجها إلى الفعل المضارع (تموتن)؛ إشارة إلى استمرار هذا النهي في الحاضر والمستقبل ودوامه في كل حين، وبثا مدويا لهذا التحذير منه (ﷺ) للأمة كلها عبر أجيالها المتتابعة؛ خوفا وشفقة عليها من هذا المصير المتمثل في هذا الجزاء الرادع يوم القيامة وقد جاء هذا الفعل (تموتن) مقترنا بنون التوكيد الثقيلة؛ إلحاحا منه (ﷺ) في النهي، وقوة في الحث على البعد عن تلك الحال، وذلك لأن "النون المشددة أبلغ في التأكيد من المخففة، لأن تكرير النون بمنزلة تكرير التأكيد"(١).

ومن الملاحظ أيضًا أنه (ﷺ) وإنْ وجَّه النهي وسلطه على الفعل المضارع في الحديث السابق: (لا تموتن) في الظاهر، إلا أنه ليس كذلك؛ لأنه لا أحد يملك إيقاع الفعل المنهي عنه أو عدم إيقاعه ؛ لأنه ليس في مقدور أي أحد وإنما النهي هنا عن كون الإنسان مدينا عندما يأتيه الموت، ونظير ذلك الأسلوب قوله –تعالى – في سياق وصية سيدنا يعقوب لبنيه بالتمسك بعقيدة التوحيد: {يَٰبَنِيَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴿١٣٢﴾}(٢)، يقول الزمخشري – رحمه الله – : "أي: فلا يكن موتكم إلا على حال كونكم ثابتين على الإسلام، فالنهي في الحقيقة عن كونهم على خلاف حال الإسلام إذا ماتوا، كقولك: لا تصلّ إلا وأنت خاشع، فلا تنهاه عن الصلاة، ولكن عن ترك الخشوع في حال صلاته"(٣).

(١) شرح المفصل لابن يعيش: ٥ / ١٦٣، إدارة الطباعة المنيرية – مصر – بدون.
(٢) سورة البقرة، جزء من الآية :١٣٢.
(٣) تفسير الزمخشري = الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل (١/ ١٩٢) الناشر: دار الكتاب العربي – بيروت، الطبعة: الثالثة – ١٤٠٧ هـ.

وتسليط هذا النهي على الفعل المضارع: (تموتَن) في ظل سياق الحديث أبلغ؛ لأنه يؤكد النهي عن ترك الدين في كل لحظة؛ لأن الموت ليس له وقت محدد، وهذه كناية لطيفة من النبي (ﷺ) عن الحرص على البعد عن الدين، وملازمة ذلك والاستمرار في الحياة على هذا النهج، حتى إذا فاجأ الموت الإنسان لقي ربه وهو غير مدان، ولاشك أن التعبير عن المعنى في ثوب الكناية أبلغ بكثير من التعبير في ثوب الحقيقة؛ وذلك لما تحققه الكناية هنا من تقرير المعنى في النفوس، وتأكيده في الأذهان، لكونه مصحوبا بالدليل والبرهان.

ولعل القارئ لجملة الأحاديث السابقة السالفة الذكر، بل كل الأحاديث التي قامت عليها الدراسة يدرك أن ثمة ارتباط بينها وبين الموت، وهذا مما يبرز خطورة الدين ويزيد من عواقبه، حيث فوات القضاء والسداد في الدنيا، وبقاء القصاص العادل والجزاء الرادع في الآخرة .

ولما كان سداد الدين وتوفية الدائن حقه بتلك الطريقة مدعاةً للتعجب، والاستغراب، والدهشة كأن سائلا سأل حينئذ: ولِمَ يُؤخذ من حسناته، ولم يكن السداد من جنس ما عليه من دين؟ فقيل: ليس يومئذ دينار ولا درهم، بفصل تلك الجملة عن سابقتها لشبه كمال الاتصال، كما يفصل الجواب عن السؤال، وهذا اللون من الفصل يسمَّى بالاستئناف البياني، ويُقوى كون الفصل لتلك العلة صحة دخول لام التعليل، أو وفائه على الجملة الثانية، أي: لأنه ليس ...، أو : فليس يومئذ ...، وترجع بلاغة هذا الفصل أن في تقدير السؤال إيجازًا بديعًا بتكثير المعنى وتقليل اللفظ، مما يتناسب مع مقام التحذير والترهيب، والتخويف، فضلا عما أفاده من تشويقٍ، وتقرير للمعنى، وأفاضه عليه من بيان وتوضيح؛ وذلك لأن "الجملة الأولى دائما مكتنزة، فيها بعض الظلال والغموض الخفيف، إنها ليست واضحة جدًا بحيث يمكن الوقوف عليها والسكوت عندها، بل تثير فيضًا من الاستفسارات والاستفهامات، تثار حتمًا في نفس المتلقي وتجذبه وتشركه في الصياغة، ثم تأتي الجملة الثانية تجيب عن

السؤال، وتطفئ أشواق النفس، وتروى ظمأها، وتشبع هذا التطلع العاطفي المجهول، فيتأكد المعنى من الناحية العقلية، وتتحقق المتعة النفسية، وتشبع حاسة الفن والجمال"[١].

وقوله (ﷺ): (ليس يومئذ دينار ولا درهم) كناية عن عدم قدرة المدين على السداد في ذلك اليوم، والتعبير بها في هذا السياق أبلغ في التهديد، وآكد في الزجر والوعيد؛ حيث جاءت تلك الكناية مقرونة بدليلها، مصحوبة ببرهانها؛ حيث لا دينار ولا درهم يوم القيامة.

وقد صُدِّرت جملة الجواب السابق بالنفي بـ (ليس)، وذلك لما يتسم به هذا الحرف من نفي مضمون الجملة عموما في الماضي والحال والاستقبال[٢]، دلالة على الانتفاء المؤكد لكل ما يعتد به في هذا اليوم من حطام الدنيا الفاني من دنانيرها ودراهما، ولولا اعتداد المدين بهذا المتاع الزائل لآثر الآخرة على الأولى، وبادر بإعطاء كل ذي حق حقه فيها، قبل لقاء الله (ﷻ).

والمراد بقوله (ﷺ) (يومئذ) أي: يوم القيامة، وتقديمه على اسم ليس تشديدا في الوعيد ؛ لأنه هو الأهم عند النفوس السوية، فهو محط الآمال، ومعقد الأعمال، وفيه ترد الحقوق لأصحابها، ولكن هذا المدين غفل أو تناسى كل ذلك بفاسد نيته، وخبث طويته.

والتنكير في قوله: (دينار ولا درهم) لعموم النفي لهما، مما ينبئ عن انعدام كل ما له قيمة من حطام الدنيا ومتاعها الزائل، وفي هذا مبالغة في تعنيف هذا المدين وتحذيره وتخويفه في الدنيا، وذمه وتوبيخه، وتبكيته وتنديمه في الآخرة.

---

(١) أسرار الفصل والوصل في البلاغة القرآنية، د / صباح دراز : ١١٥، ١١٦، مطبعة الأمانة، الطبعة الأولى – ١٤٠٦ هـ – ١٩٨٦ م .

(٢) ينظر: مغني اللبيب: ١ / ٣٩٤، والبرهان في علوم القرآن للزركشي : ٤ / ٣٩٦ .

موازنة وفروق :

والحديث السابق وثيق الصلة من حيث المعنى بحديث آخر رواه البخاري عن أبي هريرة أن رسول الله (ﷺ) قال: ((**مَنْ أَخَذَ أَمْوَالَ النَّاسِ يُرِيدُ أَدَاءَهَا أَدَّى اللَّهُ عَنْهُ، وَمَنْ أَخَذَ يُرِيدُ إِتْلاَفَهَا أَتْلَفَهُ اللَّهُ**)) (١)، ولذا سأكتفي بالموازنة بينهما من حيث السياق والمقام، وما ترتب على ذلك من فروق ودلالات في النظم.

فالحديثان وإن بنيا على أسلوب المقابلة، وتكاد تكون صيغة بنائهما واحدة، حيث بُنيا على أسلوبي شرط، وكل أسلوب جاء مقابلا للآخر، ولكن تتبدَّى بعضُ الفوارق اللغوية في نظم كل حديث، وقد جاءت منسجمة، ومتسقة مع مقام ورود كل حديث وسياقه، وذلك كالآتي:

أولا : أن الحديث محل الدراسة صُدِّر بتلك اللافتة التحذيرية، ذات التعبير الصادم والحاسم : (الدين ديْنان)، وذلك لأنه جاء في سياق الإخبار عن المدين الذي فارق الحياة بالموت، وقد أبان فعل الشرط عن ذلك (فمن مات ...)، فكان من المناسب التذكير في بدء الحديث بأن الموت لا يحول أبدا من تسمية الدين دينا ، ولا يسقط به حق الدائن، بخلاف حديث البخاري، فعملية الدين في بدئها بدليل فعل الشرط (من أخذ ...) فكان الأهم اتجاه الحديث إلى بيان الضوابط والإرشادات التي تُعينُ الإنسان على سداد ما هو بصدد التعرضِ له من عملية التداين، وهو أن تتحقق لديه الإرادة الصادقة، والرغبة الأكيدة في السداد، وحينئذ يستحق عون الله وتوفيقه، بتيسير أموره، وقضاء حوائجه، وتوسيع رزقه .

ثانيا : أن لغة الدين في الحديث محل الدراسة كانت صريحة وواضحة بمنطوق اللفظ ذاته (الدين ديْنان)؛ إعلانًا قاطعًا بأن هذا الدين الذي صار

(١) صحيح البخاري كتاب الاستقراض وأداء الديون والحجر والتفليس، باب من أخذ أموال الناس يريد أداءها أو إتلافها : ٣/١١٥، رقم : (٢٢٥٧) .

مؤكدا ومحققا في ذمة المدين الذي فارق الحياة يحتاج إلى السداد والتوفية لأصحابه، ومن ثم اتجه السياق في جواب الشرط إلى إبراز ذلك بتحمل رسول الله (ﷺ) له في الدنيا، ثم الله (ﷻ) في الآخرة بإرضاء الغريم بما شاء لمن كان صادق النية في السداد، وبالقصاص ممن خبثت نيته وفسدت طويته، أما حديث البخاري فكانت فيه لغة الدين من فحوى الكلام ومفهومه (من أخذ أموال الناس ..)، بل إن هذا التعبير أشمل من الدين فهو " يشمل أخذها بالاستدانة وأخذها لحفظها"[1]؛ لأن المدين ما زال على قيد الحياة، فكان الأنسب له التذكير بأن هذا المال الذي آل إليه ما هو إلا مال الناس في الحقيقة، الذين تعبوا وكدوا في جمعه وتحصيله، ومن ثم اتجه السياق إلى حثه على سداده، مع استحضار النية الصادقة في ذلك، حتى يستحق توفيق الله وعنايته، وإلا تعرض لإهلاك الله له، ولهذا المال الذي استدانة بتضييق أموره، وتعسير مطالبه، ومحو البركة من حياته .

ثالثا : لمَّا كان المدين في حديث البخاري ما زال على قيد الحياة، بل إن الحديث يشعر بأن عملية التداين ما زالت في بدئها، كان الأنسب أن يعبر في جملة الحال بفعل الإرادة، بما تقتضيه من الحركة والنشاط والعمل، وبذل الجهد والطاقة في سبيل توفية الناس حقوقهم، كما أن الإرادة كما يقول أبو هلال العسكري: "لا تتعلق إلا بالمستقبل"[2].

بخلاف الحديث الآخر، فالمدين قد مات، فلا يملك شيئا من الإرادة، فكان من العدل والإنصاف أن يوجد مقياسٌ عادلٌ لحسابه وجزائه على هذا الدين، فكان التعويل على نيته، وهي أعمق ما تُضمِرُه النفس الإنسانية، والتي لا يعلم بها إلا علام الغيوب – سبحانه – ومن هنا كان الأنسب أن يعبر في جملة الحال فيه بفعل النية (ولا ينوى ..).

(١) سبل السلام، للصنعاني: ٢ / ٧٠، الناشر: دار الحديث، بدون طبعة وبدون تاريخ.
(٢) الفروق اللغوية لأبي هلال العسكري: ١٤٠.

رابعًا : كذلك اختلفت جملة الحال في كلا الحديثين من حيث اقترانها بالواو وعدمه، فجاءت مقترنة بالواو في الحديث محل الدراسة (وهو ينوي) و (ولا ينوي) ، بينما جردت منها في الحديث الآخر، وقد جاء كل منهما مناسبا لمقامه، فجملة الحال حين تجرد من الواو " تصبح في حكم الحال المفردة، وتتصل بالجملة التي هي قيد فيها اتصالا ذاتيا، كما تتصل الصفة بالموصوف، وجملة الخبر بالمبتدأ؛ لأنها حينئذ تكون الغرض الذي يتجه إليه المعني، ويزجي القول فيه، وأما حين تدخل الواو على جملة الحال، فلا يكون الغرض متجها إلى الحال وحدها، وإنما يقصد إلى أمرين على سبيل الاستقلال، يجمع بينهما بـ (واو) الجمع"(١).

ويقول الإمام عبد القاهر في الفرق بينهما: "اعلم أن كل جملة وقعت حالا، ثم امتنعت من (الواو) فذاك لأجل أنك عمدت إلى الفعل الواقع في صدرها، فضممته إلى الفعل الأول في إثبات واحد، وكل جملة جاءت حالا، ثم اقتضت الواو فذاك لأنك مستأنف بها خبرا، وغير قاصد إلى أن تضمها إلى الفعل الأول في الإثبات"(٢).

وبهذا الاستجلاء للجملة الحالية في اقترانها بالواو من عدمه يتضح أن اقتران جملة الحال في حديث البخاري بالواو جاء متسقا ومتناغما مع مقام أخذ الدين، فهو أخذ مقرون ومصحوب بالإرادة، سواء إرادة الأداء، أو إرادة الإتلاف، ومن ثم جاء معنى الجملة الحالية في هذا المقام مسكوبًا في معنى الجملة التي قبلها، وقد صار الخبران بهذا السبك خبرا واحدا(٣).

أما الحديث الآخر فكان القصد فيه إلى استئناف خبر جديد بجملة الحال؛ لأن المدين قد مات، فلم تبق إلا نيته، فاتجه السياق إلى استئناف خبر جديد

---

(١) الواو ومواقعها في النظم القرآني، د / محمد الأمين الخضري، صـ ٤٧٤، مخطوط بكلية اللغة العربية بالقاهرة ١٤٠٣ هـ – ١٩٨٣م.

(٢) دلائل الإعجاز: ٢١٣.

(٣) ينظر: شرح أحاديث من صحيح البخاري : ٣١٢ .

بها؛ اعتدادًا وتعويلًا عليها في ميزان الحكم عليه، وكأن تلك الجملة الحالية هي الأصل، وما قبلها كان مقدمة وتمهيدا لها، وكأننا أمام خبرين جاءت واو الحال لتجمع بينهما، لا خبرًا واحدًا .

خامسا : أن فعلي تلك الجملة الحالية لما اختلفا اختلف معهما ما تعلق به كلُّ فعلٍ منهما، وقد جاء كل منهما مناسبا لسياقه، فالمدين في حديث البخاري ما زال حيا، ولديه سعة من الوقت في السداد، فناسبه التعبير عنه بـ (يريد أداءها) أما المدين في الحديث الآخر فقد مات وفارق الحياة، فكان الأنسب أن يعبر عن سداده بـ (ينوي قضاءه)، وذلك كما يقال في الصلاة : أداء، وقضاء، فالأول: لمن أداها في وقتها، والثاني: لمن فاته الوقت وأتى بها بعده، كما أن (أموال الناس) يناسبها الأداء، و(الدين دينان) يناسبه القضاء، واستبدلْ اللفظتين مكان بعضهما، واقرأ النظم ستجد كلتا اللفظتين قد نبيا عن موضعهما، وتنافرا مع مقامهما.

وهذا من التلاؤم، والتناسب، والتناغم البديع في بيانه (ﷺ) وتلك هي البلاغة النبوية التي وصفها الرافعي بقوله: "هي البلاغة الإنسانية التي سجدت الأفكار لآياتها، وحسرت العقول دون غاياتها، ولم تصنع وهي من الإحكام مصنوعة، ولم يُتكلَّف لها، وهي على السهولة بعيدة ممنوعة"(١).

❁❁❁❁❁

(١) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية: مصطفى صادق الرافعي : ١٩٢، ١٩٣، ط دار الكتاب العربي، بيروت – لبنان – الطبعة الثامنة – ١٤٢٥ هـ – ٢٠٠٥ م .

المقام الخامس

تأثير الدين على العقيدة والسلوك العام

عَنِ الزُّهْرِيِّ، قَالَ: أَخْبَرَنَا عُرْوَةُ بْنُ الزُّبَيْرِ، عَنْ عَائِشَةَ، زَوْجِ النَّبِيِّ (ﷺ)، أَخْبَرَتْهُ: " أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ (ﷺ) كَانَ يَدْعُو فِي الصَّلاَةِ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ عَذَابِ القَبْرِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ فِتْنَةِ المَسِيحِ الدَّجَّالِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ فِتْنَةِ المَحْيَا، وَفِتْنَةِ المَمَاتِ، اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ المَأْثَمِ وَالمَغْرَمِ " فَقَالَ لَهُ قَائِلٌ: مَا أَكْثَرَ مَا تَسْتَعِيذُ مِنَ المَغْرَمِ، فَقَالَ: «إِنَّ الرَّجُلَ إِذَا غَرِمَ، حَدَّثَ فَكَذَبَ، وَوَعَدَ فَأَخْلَفَ»(١).

هذا الحديث يختلف في مذاقه، وطريقة سرده، ولغة بنائه، عن الأحاديث الثلاثة الأولى التي قامت عليها تلك الدراسة ؛ حيث كانت أشبه بالحوار، وبدا فيها طابع السرد القصصي واضحًا، حيث اشتمل كل حديث منها على قصة، كانت هي محور سرده، واكتمال لغة بنائه .

أما مقام هذا الحديث فهو كما هو واضح في الصلاة؛ حيث مناجاة رسول الله (ﷺ) لربه، وطلب الاستعاذة، والحماية، والتحصين، من أمور معينة، ولم تظهر فيه لغة الحوار إلا في تزييله عندما سُئل النبي (ﷺ) عن سر كثرة تعوذه من المغرم، فكشف للسائل عنه .

وكما اختلفت لغة بناء هذا الحديث عن الأحاديث السابقة، كذلك اختلف طابع التحذير من الدين فيه؛ حيث كان الدين فيها حاجزا وعقبة كؤودة أمام ثواب عظيم، إما دخول الشهيد الجنة، أو تكفير خطاياه، استحقاقا لثواب شهادته، أو امتناع النبي (ﷺ) من الصلاة على المدين، وما يترتب على ذلك من فوات ثواب عظيم، وفضل كبير، ولكن التحذير في هذا الحديث أخذ طابع التعليل لمخاطر الدين، وما يجلبه على صاحبه من شرور وآثام، بما يؤثر

(١) صحيح مسلم كتاب :المساجد ومواضع الصلاة، باب: ما يستعاذ منه في الصلاة، رقم: (٥٨٩).

على أخلاقه وسلوكه العام، وبما يدل على أن كثرة الديون تورد المهالك، وتحمل المدين غالبا على الوقوع في الآثام والكبائر .

وقد أُجريت لغة هذا الحديث على لسان أمنا عائشة بذكر البدل والمبدل منه (عائشة زوج النبي) كما أن الفعل (أخبرته) فيه ما ينبئ عن كمال الثقة في الإسناد وصحته، كما يشير بدلالته على أنه خبر مهم، وأنه جدير بأن تنقله إليه، وأنه هو الآخر تلقاه منها، وجرى في حسه وقلبه، اهتماما به، وإلا لقيل: أن عائشة قالت: كان النبي (ﷺ) يدعو في الصلاة .

وقولها: (كان يدعو في الصلاة) فيه تشويق لمعرفة هذا الدعاء، ومزيد تطلع للنفوس إلى الوقوف عليه، للدعاء به، والاقتداء بسنته القولية (ﷺ)، وذلك لما في تلك العبارة من إجمال وإبهام جاء دعاؤه (ﷺ) بعد ذلك مفصلًا ومبينًا له.

وفي الفعل (يدعو) استحضار لصورته (ﷺ) وهيئته وهو يلهج بهذا الذكر، مما يشي بأهميته، وينبئ عن عظيم نفعه ؛ حيث جاء شاملًا لكثير من أبواب الخير، ودافعا لكثير من أبواب الشرور والآثام، ومعلوم أنه (ﷺ) كان يعلم أصحابه الاستعاذات كما يعلمهم السورة من القرآن[١].

وتقييد هذا الدعاء بـ (في الصلاة) مما يزيد من أهميته، ويدعو إلى التطلع إلى معرفته، والوقوف على أسرار كلماته، وإيحاء عباراته، وإدراك معانيها؛ لأن الصلاة في أصلها راحة، وسكينة، وطمأنينة، فكيف يكون الحال إذا اقترنت بهذا الدعاء النبوي الشامل؟.

وإذا كانت هذه الرواية لم تحدد في أي جزء كانت تلك الاستعاذة من الصلاة، فقد أشارت بعض الروايات الأخرى إلى أن موضعها بعد الفراغ من التشهد وقبل السلام، ففي حديث أبي هريرة: ((إذا تشهد أحدكم فليستعذ وذكر

(١) ينظر : صحيح مسلم ، كتاب : المساجد ومواضع الصلاة، باب : ما يستعاذ منه في الصلاة، رقم : (٥٩٠) .

هذا الدعاء ...))[1]، وعنون الإمام البخاري لهذا الحديث بـ (باب الدعاء قبل السلام) ثم ذكر هذا الحديث وغيره من الأدعية، وقد استدل الحافظ ابن حجر بذلك على أفضلية هذا الدعاء على غيره.

من الأدعية الأخرى الواردة [2] بعد الفراغ من التشهد، وقبل السلام فقال: "فَهَذَا فِيهِ تَعْيِينُ هَذِهِ الِاسْتِعَاذَةِ بَعْدَ الْفَرَاغِ مِنَ التَّشَهُّدِ فَيَكُونُ سَابِقًا عَلَى غَيْرِهِ مِنَ الْأَدْعِيَةِ، وَمَا وَرَدَ الْإِذْنُ فِيهِ أَنَّ الْمُصَلِّيَ يَتَخَيَّرُ مِنَ الدُّعَاءِ مَا شَاءَ يَكُونُ بَعْدَ هَذِهِ الِاسْتِعَاذَةِ وَقَبْلَ السَّلَامِ"[3].

وعلى هذا: يكون التعبير بلفظ (في الصلاة) من قبيل المجاز المرسل لعلاقة الكلية؛ حيث أطلق الكل وأريد الجزء، وهو ما بعد قراءة التشهد وقبل السلام، وفي هذا المجاز إيحاء بتعظيم هذا الدعاء حيث اختصه النبي (ﷺ) بهذا الجزء من الصلاة، قبل أن يغادر العبد لقاء ربه بختامها بالسلام.

وهذا يدعو إلى التساؤل: لماذا كان هذا الدعاء بالأخص في هذا الجزء من الصلاة، وما مناسبته للمقام ؟

أقول : إن هذا الجزء من الصلاة إعلان بمغادرة العبد لقاء ربه، وقطع لتلك المناجاة الذكية، وهذا الاستغراق العذب في الشعور بأنه في معية الله، يناجيه، ويحمده، ويعترف بربوبيته، وغير ذلك مما تشتمل عليه الصلاة، وبمجرد انتهاء، الصلاة بالسلام يبدأ العبد في التعرض لأمور الدنيا، وما قد

(١) ينظر: الكوكب الوهاج والروض البهاج في شرح صحيح مسلم بن الحجاج: ٨/
(٢) أذكر منها قوله (ﷺ) : ((اللهم إني ظلمت نفسي ظلما كثيرا ولا يغفر الذنوب إلا أنت فاغفر لي مغفرة من عندك، وارحمني إنك أنت الغفور الرحيم)) صحيح البخاري،كتاب: صفة الصلاة، باب: الدعاء قبل السلام، رقم : (٧٩٩).
(٣) فتح الباري شرح صحيح البخاري لابن حجر العسقلاني : ٣١٨/٢ ، رقم كتبه وأبوابه وأحاديثه: محمد فؤاد عبد الباقي، قام بإخراجه وصححه وأشرف على طبعه: محب الدين الخطيب، عليه تعليقات العلامة: عبد العزيز بن عبد الله بن باز، الناشر: دار المعرفة – بيروت، ١٣٧٩ هـ .

يجره إلى أبواب مفاتنها وزخارفها ومغرياتها بما يؤول به في النهاية إلى عذاب القبر وفتن الدنيا وآثامها، وغير ذلك من أبواب الشر، ومن هنا كان من المناسبة بمكان أن يستعيذ النبي (ﷺ) من كل ذلك قبل أن يغادر لقاء ربه، وهذا – بلاشك – من ائتلاف اللفظ مع الحال والمقام.

وقد جاء استهلاله (ﷺ) لهذا الدعاء استهلالا بارعا، يتناسب مع مقام القرب من الله – تعالى – في الصلاة، فاستفتحه بتلك الصيغة المفعمة بالتعظيم (اللهم) واتفق العلماء أن أصلها (يا الله)، وأن الميم فيها زائدة، وليست من أصل الكلمة [١] .

وقد جاء حذف حرف النداء هنا في غاية المناسبة للسياق والمقام ؛ حيث غاية الضراعة، وكمال الخشوع وشدة إقبال الداعي وتوجهه إلى الله (ﷻ)، والإحساس البالغ بمعية الله معه، وهذه الصيغة "تستعمل في الأدعية كثيرًا ؛ لما فيها من الدلالة على قرب الله – تعالى – من الداعي قُرب علم، لا قُرب مسافة وتحديد"[٢].

كما بدا جليًا في هذا الدعاء حرارة العاطفة، والتي كان منبعها إحساس الداعي بقرب الله منه، وقرب العبد منه – سبحانه –، والموقف هنا أحق بها، والمقام أدعى لها، وكان التأكيد في (إني) أحد مظاهر تلك العاطفة الجياشة، فهو ليس مراعاة لحال المخاطب، ولكن منشأه عمق الإحساس بالمعنى، كما يُظهر حالة الرجاء التي عليها نفسه (ﷺ)، وتأكيده على تحقيق مطلوبه.

---

(١) ينظر: تفصيل ذلك في: شرح التصريح على التوضيح للشيخ خالد الأزهري وبهامشه حاشية العلامة يس : ١ / ١٧٢، طبعة عيسى البابا الحلبي، وينظر : أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك لابن هشام الأنصاري : ٤ / ٣١، دار الجيل – بيروت – لبنان – ط ٥ – ١٣٩٩ هـ – ١٩٧٩ م، وينظر : عناية القاضي وكفاية الراضي على تفسير البيضاوي للشهاب الخفاجي : ٣ / ١٥، دار صادر – بيروت .

(٢) من دقائق البيان النبوي في صيغة التلبية، أ.د / رفعت إسماعيل السوداني: ١٨، بحث منشور في مجلة كلية اللغة العربية بإيتاي البارود، عدد ٢٠٠٣ م.

ومن مظاهر تلك العاطفة القوية – أيضا – تكرار لفظ المسند (أعوذ) وما تعلق به (بك) وقد جاء مصورًا عمق إحساسه (ﷺ) بكل استعاذة، وأنها طاغية على حسه وشعوره، فكررها في اللفظ، كما هي مقررة في نفسه ووجدانه، والتكرار في هذا المقام " كأنه دندنة تستعذِبُها النفس المليئة"(١).

وفي تلك الصيغة تباشير الثقة الواثقة في استجابة الدعاء ؛ لأن الداعي هو خير العباد إلى الله، وكان الدعاء في أعظم المقامات ؛حيث التجليات والأنوار، ودروب القرب والوصال، ومن أمارات تلك الثقة العدول عن الإنشاء إلى الخبر في قوله: (إني أعوذ بك) فلم يقل (ﷺ): اللهم أعذني، بصيغة الأمر؛ لأنه يناجي ربه مناجاة الواثق المطمئن على تحقيق مطلوبه، وكأنه كان، وهذا من حسن ظنه (ﷺ) بربه – سبحانه – فهو القائل: (أنا عند حسن ظن عبدي بي)(٢)، فضلا عما في صيغة الخبر من حسن الأدب مع الله (ﷻ) بعدم الطلب المباشر منه.

والفعل (أعوذ) ينبئ بمادته (عوذ) عن اللجوء إلى الله، وطلب الحماية والتحصين والاستجارة والتعلق به – سبحانه – ودفع المكروه والمضار عن المستعيذ، يقال: عاذ به عوذًا وعياذًا، التجأ إليه واعتصم به، وعاذ به: لزمه، وأعاذه الله: حصَّنه به وبأسمائه، وتعاوز القومُ في الحرب: احتمى بعضهم ببعض، وتعوذ به لجأ إليه واعتصم، والعوذ الملجأ، والعوذة: التميمة والرقية يرقى بها الإنسان من فزع أو جنون(٣).

وهذا الفعل ينبئ بصيغة المضارعة عن طلب التجدد والحدوث لما طُلِب الاستعاذة منه، وعدم انقطاع حماية وتحصين الله لعبده مما طلب الاستعاذة منه.

(١) خصائص التراكيب، أ.د / محمد أبو موسى: ٢٩٤.
(٢) صحيح مسلم : ٤/٢٠٦١، باب الحث على ذكر الله.
(٣) ينظر : لسان العرب: عوذ.

وتقديم قوله: (بك) على المستعاذ منه (عذاب القبر) لإفادة الاختصاص، وهو إعلان قاطع بأنه وحده – سبحانه – هو المعيذ والمجير، دلالة على كمال الثقة في الله، وإظهار غاية الضراعة إليه.

و(من) في قوله (من عذاب القبر) للتعليل[١]، وإضافة العذاب إلى القبر مما يفيد العموم والاستغراق، أي: من كل ألوان العذاب في القبر من لحظة وضع آخر لبنة فيه، حيث يبدأ سؤال الملكين حتى قيام الناس من قبورهم للوقوف بين يدي رب العالمين للحساب والجزاء، ومعلوم أن إفادة الإضافة إرادة الاستغراق أبلغ وأشمل من إفادة الألف واللام إياه[٢].

وكلمة (عذاب) فيها التهويل، والتفظيع، والتعظيم، والتنويع، والتكثير، كل تلك المعاني نلمحها قبل إضافتها إلى القبر، فإذا نظرت إلى ما تنبئ به بعد إضافتها إلى القبر، وجدت تلك المعاني أضعافا مضاعفة، وكان عماد ذلك المجاز العقلي الواقع في النسبة الإضافية، والتي هي من إضافة المصدر إلى غير ما حقه أن يضاف إليه، فالعذاب مصدر أضيف إلى مكانه (القبر).

وهذا العدول مما يبرز غاية المبالغة في التبشيع والتنفير من هذا العذاب الكائن فيه، وكأن المكان نفسه هو الذي يُصدر العذاب، حيث ضمة القبر وضغطته، وظلمته، ووحشته، إلى غير ذلك مما هو كائن فيه – أعاذنا الله من كل ذلك.

ومن هنا جعله النبي (ﷺ) في بداية ما استعاذ منه ؛ لأنه أول منازل الآخرة، فإذا نجا منه العبد كان ما بعده أيسر، وهذا التقديم للاستعاذة من عذاب القبر في ظل هذا المقام في غاية المناسبة لحال المصلي الخاشع المقبل على ربه، وما يعتريه من الإحساس بأنه وإن كان في معية الله، وفي

(١) ينظر: الجني الداني في حروف المعاني: ٣١٠.
(٢) ينظر: شروح التلخيص: ١/ ٣٤٧.

أمان الله، إلا أنه لم ينس خوفه من عذابه – سبحانه –، وهذا هو حال المؤمن الحق، يعيش متقلبا بين الرجاء و الخوف.

وإن قيل: كيف يستعيذ (ﷺ) من عذاب القبر، وهو المغفور له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ؟!

قيل: إن في استعاذته (ﷺ) من كل ما استعاذ منه، إظهارا للافتقار إلى الله، وإقرارًا بالنعم، واعترافا بما يتجدد من شكره عليها.

كما أن في استعاذته (ﷺ) منه إرشادا لأمته؛ ليقتدوا به فيما فعله، وفيما أمره، حتى يتخلصوا من شدائد الدنيا والآخرة(١).

وقيل: إن دعاءه واستعاذته لأمته، فيكون المعنى: أعوذ بك لأمتي(٢).

ثم أتبع النبي (ﷺ) تعوذه من عذاب القبر بالاستعاذة من فتنة المسيح الدجال (وأعوذ بك من فتنة المسيح الدجال) بتكرار لفظ المسند (أعوذ) مرة ثانية، وفيه التأكيد على إظهار كمال الخضوع والتذلل لله (ﷻ)، وهذا من أهم شروط استجابة الدعاء.

وفتنة المسيح الدجال: تعنى ابتلاءه واختباره؛ حيث ادعاؤه الألوهية، وذلك عند خروجه آخر الزمان، و(فتنة) أصلها مأخوذ من قولك: فتنت الفضة والذهب، إذا أذبتهما بالنار لتمييز الجيد من الرديء(٣).

والتعبير بها في ظل هذا المقام جار على سبيل الاستعارة التصريحية الأصلية، ومن عطاء تلك الاستعارة الدلالة القوية على شدة لبسه، وقوة خداعه، وأنه لا خير فيه، وأنه لن يسلم من شرره وضرره إلا قوي الإيمان، ثابت العقيدة .

---

(١) ينظر: عمدة القاري شرح صحيح البخاري للعيني : (٨/ ٢٠٧) – دار إحياء التراث العربي – بيروت.

(٢) ينظر: المنهل الحديث في شرح الحديث، الأستاذ الدكتور /موسى شاهين لاشين، كتاب الآذان: ١ / ١٧٩، دار المدار الإسلامي، الطبعة: الأولى، ٢٠٠٢ م.

(٣) لسان العرب: فتن.

وقد جاءت تسميته بذلك في غاية المناسبة لما سيكون منه، وما يكون في زمانه، (فمسيح) فعيل بمعنى: مفعول، لأنه ممسوح العين، أي إحدى عينيه ذاهبة، مما يوحي ببشاعة هيئته، أو ممسوح البركة، فلا خير فيه، أو مسيح بمعنى: فاعل؛ لأنه يمسح الأرض، أي يقدرها ويعدها بالزراع والشبر[١].

و(الدجال) صيغة مبالغة للإشارة إلى كثرة دجله وخداعه، وقدرته على اللبس والخلط والتضليل، وهذا مما يتناسب مع التعبير عنه بـ (فتنة) وإضافتها إليه.

يقول بدر الدين العيني: "وفائدة استعاذته من المسيح الدجال أن ينتشر خبره بين الأمة من جيل إلى جيل أنه كذاب، مبطل، مفتر ساع على وجه الأرض بالفساد، مموه ساحر، حتى لا يلتبس على المؤمنين أمره عند خروجه"[٢].

ويرتقي البيان النبوي الكريم في الدعاء (وأعوذ بك من فتنة المحيا والممات) و(المحيا والممات) كلاهما مصدران ميميان[٣] بمعنى الحياة والموت، ويحتمل زمان ذلك أي الفتنة زمن الحياة من شهوات الدنيا والجهالات[٤].

---

(١) ينظر : المفاتيح في شرح المصابيح، الحصين بن محمود بن الحصين : ٢ / ١٦٧ – باب الدعاء في التشهد، إصدار إدارة الثقافة الإسلامية، وزارة الأوقاف الكويتية، ط ١، ١٤٢٢ هـ – ٢٠١٢ م وينظر : الكوثر الجاري إلى رياض أحاديث البخاري، أحمد بن إسماعيل بن عثمان بن محمد الكوراني الشافعي: ٢ / ٤٥٥، تحقيق: الشيخ أحمد عزو عناية، الناشر: دار إحياء التراث العربي، بيروت – لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤٢٩ هـ – ٢٠٠٨ م

(٢) عمدة القاري شرح صحيح البخاري للعيني : (٦/ ١١٧) .

(٣) المصدر الميمي: ما دلّ على الحدث وبدئ بميم زائدة على غير مفاعلة، تصريف الأسماء، محمد الطنطاوي: ٧٢، مطبعة وادي الملوك – مصر، الطبعة الخامسة، ١٩٥٥م.

(٤) ينظر: عمدة القاري شرح صحيح البخاري للعيني: (٦/ ١١٧)، والمنهل العذب المورود في شرح سنن أبي داود، محمود محمد خطاب السبكي: ٣٢٩/٥، الناشر: مطبعة الاستقامة، ١٣٥هـ.

وفتنة الممات اختلفوا فيها، فقيل : فتنة القبر، وقيل : يحتمل أن يراد الفتنة عند الاحتضار، أضيفت إلى الموت لقربها منه [١]، وذلك على سبيل المجاز المرسل لعلاقة : اعتبار ما سيكون، وفيه إشارة إلى خطورة وقت الاحتضار، وشدة وقع هذا الوقت على العبد، وما فيه من محاولة إبليس اللعين في فتنة العبد، وتزيين الكفر له، وحبْسِه عن النطق بالشهادتين، حتى يلقى ربه على غير ملة التوحيد .

وإن قيل: إذا كان المراد من قوله (وفتنة الممات) فتنة القبر، يكون هذا مكررا، لأن قوله من عذاب القبر يدل على هذا، قلتُ: لا تكرار، لأن العذاب يزيد على الفتنة، والفتنة سبب له، والسبب غير المسبب[٢].

وهذه الجملة من دعائه (ﷺ) تعد من جوامع كلمه، ففيها إيجاز قصر بديع، حيث اندرجت تحتها الكثير من المعاني، فهي دعاء شامل جامع لكل ما يهم أمر العبد في دنياه وأخراه قال ابن بطال: "هَذِهِ كَلِمَةٌ جَامِعَةٌ لَمَعَانٍ كَثِيرَةٍ وَيَنْبَغِي لِلْمَرْءِ أَنْ يَرْغَبَ إِلَى رَبِّهِ فِي رَفْعِ مَا نَزَلَ وَدَفْعِ مَا لَمْ يَنْزِلْ وَيَسْتَشْعِرَ الِافْتِقَارَ إِلَى رَبِّهِ فِي جَمِيعِ ذَلِكَ"[٣].

وفي جمعه (ﷺ) بين (المحيا والممات) إيحاء بعدم الفصل بين عمل الدنيا والآخرة؛ لأن الأعمال الدنيوية إذا صحت فيها النية الطيبة الخالصة لله تحولت إلى عمل أخروي يثاب عليها المرء وإذا ما لابست الغوايةُ والفتنةُ أعمالَه الدنيوية كان ذلك نذير شؤم لفتنة الممات.

---

(١) شرح سنن أبي داود، شهاب الدين أبو العباس أحمد بن حسين بن علي بن رسلان المقدسي الرملي الشافعي: ٤/ ٩١، تحقيق: عدد من الباحثين بدار الفلاح بإشراف خالد الرباط، دار الفلاح للبحث العلمي وتحقيق التراث، الفيوم – جمهورية مصر العربية، الطبعة: الأولى، ١٤٣٧هـ- ٢٠١٦م.

(٢) السابق: الصفحة نفسها.

(٣) فتح الباري لابن حجر: (١١/ ١٧٧).

ومن وسائل توكيد المعنى في ظل هذا السياق ما أضفاه الطباق الواقع بين لفظي (المحيا والممات)، وقد جمع بين كل ما يخص العبد في شئون دنياه وأخراه، وكان له دوره البالغ في إفادة تأكيد وتعظيم المطلوب.

ومن الألوان البلاغية البارزة الوصل بين جمل هذا الدعاء الثلاث بالواو، وذلك للتوسط بين الكمالين، حيث اتفقت في الخبرية لفظا؛ والإنشائية معنى، مع ما بينها من التناسب في المعنى، وهو التعوذ من كل ما يكره من الآثام والشرور.

كما أضفى النبي (ﷺ) على بيانه السابق نوعا من الإطناب، وهو ذكر العام بعد الخاص، فعذاب القبر داخل في فتنة الممات، وفتنة المسيح الدجال داخلة في فتنة المحيا، وفي هذا مزيد عناية بأمر هذا الخاص، وتنويه بشأنه لخطورته، وأنه جدير من أجل هذا أن يستعاذ منه بمفرده، وأن يجيء قبل العام.

وقد جاء هذا اللون البلاغي في غاية المطابقة للمقام، فالمقام دعاء واستعاذة، وطلب تحصين وحماية، ولاشك أن المعاصي والآثام يفضي بعضها إلى بعض، والذنب يفضي غالبا إلى ذنب، والفتنة باب لفتنة أخرى، كما أن مقام الدعاء في الصلاة، وبخاصة قبل مغادرة العبد لقاء ربه، مما يقتضي الإطناب والتطويل، حيث مناجاة الخالق – سبحانه – والله (ﷻ) يحب عباده السائلين الذين يلحون في الدعاء والذكر، فنعم الإطناب في هذا المقام.

ومن وجوه البلاغة – أيضًا – بين تلك الجمل الثلاث من دعائه (ﷺ) ما يبدو بينها من تناسب الألفاظ، وتلاؤم المعاني، حيث دارت كلها على معنى واحد، وهو الاستعاذة من كل ضروب الشر ومجامعه : " فإن الشر إما عذاب الآخرة وإما سببه، فليس الشر إلا العذاب وأسبابه، والعذاب نوعان: عذاب في البرزخ، وعذاب في الآخرة، وأسبابُه الفتنة، وهي نوعان: كبرى وصغرى،

فالكبرى فتنة الدجال وفتنة الممات، والصغرى فتنة الحياة التي يمكن تداركها بالتوبة، بخلاف فتنة الممات وفتنة الدجال، فإن المفتون فيهما لا يتداركها"[١].

كما اشتملت على هذا المحسن البديعي البليغ، وهو اللف والنشر غير المرتب[٢]، فعذاب القبر داخل تحت فتنة الممات، وفتنة الدجال داخلة تحت فتنة المحيا، وكان لهذا اللون دوره البارز في تفخيم المعنى وتأكيده، وتلاحم الكلام وقوة سبكه، والربط بين العناصر اللغوية المكونة لبنائه، مما يجعل الداعي يتفاعل بشدة مع مضمونه، ويعيش بقوة في رحاب روحانياته .

ويتصاعد الإحساس بالقرب وينمو الوصال، تناسبًا مع مقام الدعاء في الصلاة فيقول (ﷺ): (اللهم إني أعوذ بك من المأثم والمغرم) بإعادة صيغة (اللهم) وكأنه (ﷺ) يضع عنوانا جديدا لمعنى جديد، ومن ثم أعطى النبي (ﷺ) هذه الاستعاذة اهتمامًا خاصًا، فلم يعطفها على ما سبقها من جمل، وجاء بها على صورة القطع والاستئناف؛ تنبيها على خطورة ما استعاذ منه (ﷺ) فيها، وهما (المأثم والمغرم) وسيطرة هذا الجزء من المعنى على حسه وشعوره، فالمأثم يشمل كل الشرور، والمغرم يفضي إلى أقبح الآثام، وأشدها خطرًا، كما سيتضح بعد.

وهذه الجملة من بيانه (ﷺ) وإن جاء ظاهرها الفصل بينها وبين سابقتها، إلا أنها متصلة بها اتصالًا داخليًا، وهذا الاتصال أقوى من الوصل الظاهري بالواو، فالمعنى فيها يتصل بما سبقها اتصالًا وثيقًا، وقوة اللحمة بينهما واضحة، فالنبي (ﷺ) استفتح دعاءه بالاستعاذة من عذاب القبر، وكأنه بدأ

(١) الفتوحات الربانية على الأذكار النووية لابن علان: ٣/ ١٠، ١١، دار إحياء التراث العربي – بيروت – المكتبة الإسلامية . بدون.

(٢) اللف والنشر هو ذكر متعدد على جهة التفصيل أو الإجمال ثم ذكر ما لكل واحد من غير تعيين، ثقة بأن السامع يرده إليه، وغير المرتب منه هو: ما جاء النشر فيه على غير ترتيب اللف، ينظر: شروح التلخيص: ٤/ ٣٢٩، وينظر: دراسات منهجية في علم البديع: ٢٢٤.

بالنتيجة وأعقبها بمقدماتها (المأثم والمغرم) أو بدأ بالمسبب (عذاب القبر) وأعقبها بالسبب، وكأنه يمهد لهذا المعنى، وكأن أصل هذه الاستعاذات تلك الاستعاذة الأخيرة، فهل يعذب المرء في قبره إلا بسبب مآثمه؟، وهل فتنة المسيح الدجال إلا من أشد الآثام وأعظمها ؟ وهل يفتن العبد في محياه ومماته إلا بسبب آثامه؟ فالجمل كلها تتلاقى، والمعاني تتشابك وتتآخى، وكل استعاذة تأخذ بطرفٍ من الأخرى ولا تنفصل عنها، والصلة الجامعة بين تلك الاستعاذة الأخيرة وما سبقها واضحة بارزة، ومن هنا كان من الدقة النبوية عدم عطف هذه الاستعاذة على ما سبقها لما بينهما من اتصال داخلي وثيق.

و(المأثم): الأمر الذي يأثم الإنسان بارتكابه كالزنا، وشرب الخمر، وغيرهما من المعاصى، أي: أعوذ بك من الذنب، وقيل: هو الإثم نفسه، وضعا للمصدر موضع الاسم(١).

وعلى القول الأول: يكون التعبير بالمأثم من قبيل المجاز المرسل لعلاقة (المسببية)، حيث أطلق المسبب (المأثم) وأريد به العمل الذي يؤدي إليه، وفيه تبشيع وتنفير من تلك الأعمال، وتنبيه للمرء على خطورة ارتكابها، وكأنه يصنع الإثم نفسه.

وعلى القول الثاني: يكون التعبير بالمصدر للمبالغة في الاستعاذة من كل ما يجر إلى الإثم والذنب.

و(المغرم) مصدر وضع موضع الاسم، قيل : يراد به مغرم الذنوب والمعاصي، فيكون مرادفا للإثم .

وقيل: المغرم: الدين كالغرم، ويراد به ما استُدِين فيما يكرهه الله – تعالى – أو فيما يجوز ثم عجز عن أدائه، أما دين احتِيجَ إليه شرعا، ويقدر على

(١) ينظر: المنهل العذب المورود شرح سنن أبي داود : ٥ / ٣٢٩، وينظر : فتح المنعم شرح صحيح مسلم، د / موسى شاهين لاشين٣ / ٢٦٥، دار الشروق، الطبعة الأولى، ١٤٢٣ هـ – ٢٠٠٢ م.

أدائه، فلا يستعاذ منه[١]، بدليل ما أخبر به (ﷺ) من الحديث المرفوع عن عبد الله بن جعفر "إن الله – تعالى – مع الدائن حتى يقضي دينه، ما لم يكن فيما يكرهه الله – تعالى –"[٢]، وهذا يعني أن " المغرم الَّذِي استعاذ مِنْهُ إِمَّا أَن يكون فِي مُبَاح، وَلَكِن لَا وَجه عِنْده لقضائه، فَهُوَ متعرض لهلاك مَال أَخِيه، أَو يستدين وَله إِلَى الْقَضَاء سَبِيل غير أَنه يرى ترك الْقَضَاء، وَهَذَا لَا يَصح إلاّ إِذا نزل كَلَامه (ﷺ) على التَّعْلِيم، لأمته، أَو يستدين من غير حَاجَة ؛ طَمَعًا فِي مَال أَخِيه وَنَحْو ذَلِك، وَحَدِيث جَعْفَر فِيمَن يستدين لاحتياجه، احتياجا شَرْعِيًّا وَنِيَّته الْقَضَاء، وَإِن لم يكن لَهُ سَبِيل إِلَى الْقَضَاء فِي ذَلِك الْوَقْت؛ لِأَن الْأَعْمَال بِالنِّيَّاتِ، وَنِيَّة الْمُؤمن خير من عمله"[٣].

و(أل) في (المأثم والمغرم) هي لام الحقيقة والجنس، أي كل ما يؤدي إلى الإثم والغرم، فالكلمتان بصيغتهما ودخول (أل) عليهما يلقيان بظلال التبشيع والتنفير من كل ما يؤدي إليهما، أو يؤول إلى مصيرهما.

وتقديم (المأثم) على (المغرم) من تقديم المسبب على السبب ؛ لأن المغرم ما لم يقض يؤول إلى الإثم.

أو من عطف الخاص على العام؛ لأن المغرم داخل في المأثم، وفي هذا تنبيه على خطورة الخاص، واعتناء بشأنه، وتحذير وتنفير بالغ من مغبته؛ لأنه يتعلق بحقوق العباد، بخلاف المأثم فهو يشمل حقوق الله وحقوق العباد، ومن هنا خصه النبي (ﷺ) بالذكر، تنبيها على خطورة حقوق العباد، وحثا على المبادرة بقضائها، وتحذيرا بالغا من محاولة التنصل منها، أو الالتفاف حولها بأي وجه كان، ويتألق الدعاء النبوي في سماء البلاغة روعة وجمالا بما أضفاه (ﷺ) على بيانه من سجع بليغ، حيث تواطأت الكلمتان (المأثم والمغرم) على حرف واحد، كما لا نغفل هذا التناغم الصوتي النابع من تشابه الكلمتين

(١) ينظر: المنهل العذب المورود شرح سنن أبي داود: ٥/ ٣٢٩.
(٢) ينظر: عمدة القاري شرح صحيح البخاري (٦/ ١١٨).
(٣) ينظر: السابق: ١١٧/٦.

في مقاطعهما الصوتية، واتحادهما في الوزن، بما يومئ إلى اتحاد المصير، فالمقطع والجرس واحد، والمصير والمآل كذلك، وكان لهذا التناغم – أيضا – دورة في تثبت تلك المعاني في النفس وإدراك ما تفيض به من معان بالغة في يقظة وحرص وخشوع وسكينة، والمساعدة على حفظ تلك الألفاظ وترديدها في يسر وسهولة، والإيقاع الصوتي في حقيقته "هو إيقاع النشاط النفسي الذي من خلاله ندرك ليس فقط صوت الكلمات، بل ما فيها من معنى وشعور"(١).

وإن قيل كيف استعاذ النبي (ﷺ) من الدين، والاستدانة جائزة ؟! والجواب: أنه "لا تعارض بين الاستعاذة من الدين وبين جواز الاستدانة ؛ ذلك أن الذي استعيذ منه ليس نفس الدين، ولكن غوائل الدين، فمن ادَّان وسلم من تلك الغوائل فقد أعاذه الله وفعل جائزا"(٢).

وبعد أن نقل لنا الصحابي الجليل سيدنا عروة بن الزبير ما أخبرته به السيدة عائشة من دعائه (ﷺ) يواصل الخبر عنها، فيقول: "قالت: فقال له قائل: ما أكثر ما تستعيذ من المغرم يا رسول الله ؟ فقال: إن الرجل ...

و(ما) الأولى في قوله (ما أكثر) تعجبية، والثانية في قوله : (ما تستعيذ) مصدرية، أي : ما أكثر استعاذتك من المغرم (٣)، وهذا واضح في أن تعجب الرجل ليس من تعوذه (ﷺ) من المغرم، بل من كثرة ذلك، وهذا ينبئ بأن هذا الأمر قد شاع، وتكرر على لسانه (ﷺ) حتى تنبَّه إليه هذا الرجل كما تنبَّه إليه غيره، ولكنه هو الذي بادر بالاستفسار من رسول الله (ﷺ) عن سر ذلك .

---

(١) عناصر البلاغة الأدبية، د / نبيل راغب : ١١٧، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ٢٠٠٣ م .

(٢) مصابيح الجامع، محمد بن أبي بكر المخزومي القرشي بدر الدين المعروف بالدماميني :٢٩٣/٥، اعتنى به تحقيقا وضبطا وتخريجا: نور الدين طالب، الناشر: دار النوادر، سوريا، الطبعة: الأولى، ١٤٣٠ هـ – ٢٠٠٩ م.

(٣) ينظر : فتح المنعم شرح صحيح مسلم : ٣ / ٣٦٥ .

ويجيبه طبيب القلوب، ومعلم الناس، وهاديهم إلى الخير فيقول : إن الرجل إذا عزم حدث ... وقد أفرغ النبي (ﷺ) بيانه في قالب متين موثق مؤكدا كلامه (إن) وعبر بأم أداوت التأكيد، تنبيهًا لكل سامع إلى خطورة المغرم وما يفضي به في النهاية إلى كثرة المضار والآثام،مما يقتضي بالغ التحذير منه قبل الوقوع في براثن مضاره، وعظيم مخاطره على النفس والدين والعقيدة، بل على المجتمع كله، كما أن هذا التأكيد مما يتناسب مع عمق تلك المعاني في نفسه (ﷺ)، فأراد أن ينقلها للرجل كما أحسها، ليبلغ سمت التحذير والتنفير له، ولكل سامع أقصى مدى، ولولا تلك المعاني وغيرها لصدَّر رسول الله (ﷺ) إجابته بأسلوب الشرط قائلا: إذا غرم الرجل .

وربما كان هذا التأكيد فيه ما يناسب حال هذا الرجل، فهو متعجب، ومن شأن المتعجب الحيرة والدهشة فهو في حكم المتردد، ومثلُ هذا يؤكد له الكلام؛ ليزال ما بداخله من تعجب واستغراب.

يضاف إلى ذلك: أن بناء تلك الجملة على التأكيد بـ (إن) مما جعلها تكتسي ثوب الاسمية، وكان من عطائها تأكيد هذا المعنى، والإشارة إلى أهميته، ولو جاء التعبير بأسلوب الشرط مباشرة لأفاد بيانه (ﷺ) مجرد الإخبار، تناسبًا مع عطاء الجملة الفعلية.

و(أل) في (الرجل) إما أن تكون للعهد من جهة أن المراد به المكلف، أو تكون للاستغراق من جهة أن هذا الأمر يشمل جميع المكلفين ذكورا وإناثا، والتعبير بالرجل هنا خاصة جاء على سبيل التغليب[1]؛ لأن الاستدانة عند الرجال أكثر بحكم أنهم يقع عليهم عبء الإنفاق غالبًا، كما أنهم أكثر حركة في مجال التعاملات المالية عموما، كما أن الرجال هم الأصل في خطاب

(١) التغليب: هو إطلاق لفظ أحد المختلفين على الآخر إجراء لهما مجرى المتفقين، ينظر: البرهان في علوم القرآن، للزركشي: ٣/ ٣٠٢، والمطول: ١٥٨.

الشرع، والنساء محمولات عليهم في التكليف، إلا ما نص الشرع على تخصيصهن به.

ثم يضفى النبي (ﷺ) على بيانه قوة وفخامة، ويمنح معناه عناية واهتماما بأسلوب الشرط: إذا غرم ...، مما جعله أقرب إلى الأحكام العامة، والقوانين الملزمة، مما يتناسب مع مقصده (ﷺ) من الزجر من الدين، أو المبالغة في التعامل به، لما يفضي به ذلك إلى أقبح الآثام، وأرذل المعاصي كما دل على ذلك جواب الشرط الآتي بيانه.

فضلا عما منحه أسلوب الشرط في ظل هذا السياق من إثارة المتلقي، وجعْلِه يتطلع إلى معرفة الجواب، وهذا مما يتناغم مع ما يهدف إليه البيان النبوي من التأكيد على خطورة الدين، وتثبيت هذا المعنى في وعي كل مسلم، وفي العقل والضمير الجمعي لأفراد الأمة، ومن هنا آثر بيان النبوة أداة الشرط (إذا)؛ دلالة على القطع واليقين بأن الذي يلج هذا الباب مترتب عليه هذا الجزاء، وسيحدث منه تلك الآثام لا محالة، "فالمستدين متعرض لهذا الأمر العظيم، فإنه قد يسأله صاحب الدين، وهو لا يتمكن من القضاء في الحال، فيكون منه الوعد الذي لا يفي فيه بما وعد"(١).

ولذا جيء بفعل الشرط (غرم) ماضيا؛ إيذانا بتحقق الوقوع، وتناغما مع هذا المعنى جاءت الأفعال جميعها التي اشتمل عليها جواب الشرط بصيغة الماضي هي الأخرى، عدولا بها عن مقتضى الظاهر فيقال: إذا عزم يحدث فيكذب، ويعد فيخلف؛ وذلك تقريرا وتأكيدا بأن ذلك كائن منه لا محالة، وإبرازا لما بين فعل الشرط وجوابه من تلازم قوي، وترابط متين.

والتعبير بالفعل (غرم) دون غيره من مثيلاته اللغوية مثل : استدان، أو اقترض، دقة نبوية بالغة، وتحديد دقيق للمعنى، إذ المقصود من أُغرِم

(١) البدرُ التمام شرح بلوغ المرام، الحسين بن محمد بن سعيد اللاعيّ، المعروف بالمَغرِبي: ١٠/ ٤٦٠، تحقيق: علي بن عبد الله الزبن، الناشر: دار هجر، الطبعة: الأولى، ١٤٢٨ هـ - ٢٠٠٧م.

بالاستدانة، وجعلها له ديدنا وعادة حتى ركبته الديون والمغارم، يدل على ذلك ما توحي به الكلمة ذاتها من معنى الملازمة، والولع بالشيء، يقول ابن منظور: " وقوله – تعالى : {إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾} [1] أَيْ مُلِحّاً دَائِمًا مُلَازِمًا. وَرَجُلٌ مُغْرَمٌ، مِنَ الغُرْمِ أَو الدَّيْن. والغَرام: الوَلُوعُ. وَقَدْ أُغْرِم بِالشَّيْءِ أَيْ أُولِع بِهِ؛ وفُلَانٌ مُغْرَمٌ بِكَذَا أَيْ لَازِمٌ لَهُ مُولَعٌ بِهِ، وَرَجُلٌ مُغْرَمٌ: مُولَعٌ بِعِشْقِ النِّسَاءِ وَغَيْرِهِنَّ. وَفُلَانٌ مُغْرَمٌ بِكَذَا أَيْ مُبتَلىً بِهِ"[2]، وهذا يتفق مع ما يقصده الإسلام من أنه " ينبغي للمؤمن ألا يستغرق في كثرة الدين؛ خشية الاهتمام به، والعجز عن أدائه "[3]، كما يتفق مع ما جاء عنه (ﷺ) في الاستعاذة؛ حيث لم يستعذ من الدين ذاته، بل استعاذ من ضَلَعِه، ففي الحديث: **(اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الهَمِّ وَالحَزَنِ، وَالعَجْزِ وَالكَسَلِ، وَالبُخْلِ وَالجُبْنِ، وَضَلَعِ الدَّيْنِ، وَغَلَبَةِ الرِّجَالِ)**[4]، وضلع الدين، أي: "ثِقَلُهُ وَشِدَّتُهُ، وَذَلِكَ حِينَ لَا يَجِدُ مَنْ عَلَيْهِ الدَّيْنُ وَفَاءَهُ، لَا سِيَّمَا مَعَ الْمُطَالَبَةِ، ... (وَغَلَبَةِ الرِّجَالِ): أَيْ: قَهْرِهِمْ وَشِدَّةِ تَسَلُّطِهِمْ عَلَيْهِ، وَالْمُرَادُ بِالرِّجَالِ الظَّلَمَةُ أَوِ الدَّائِنُونَ"[5].

وقد جاء التعبير بالفعل (حدَّث) بما فيه من تضعيف العين متناغما مع تلك الدلالة السابقة، فالرجل من كثرة ديونه يصير كثير الاختلاق للعلل والأعذار، ويستمرئ الكذب، ويتخذه ديدنا وعادة، يتكلف الحديث الممزوج

---

(١) سورة الفرقان، الآية رقم :٦٥.

(٢) لسان العرب : غرم .

(٣) طرح التثريب في شرح التقريب (المقصود بالتقريب: تقريب الأسانيد وترتيب المسانيد)، أبو الفضل زين الدين عبد الرحيم بن الحسين بن عبد الرحمن بن أبي بكر بن إبراهيم العراقي : ٣١/٤، الناشر: الطبعة المصرية القديمة، بدون.

(٤) صحيح البخاري كتاب الجهاد والسير، باب من غزا بصبي للخدمة: ٣٦/٤، رقم: (٢٧٣٦).

(٥) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح :٤/ ١٧٠٤(بتصرف) .

بالخداع، والتمويه، والكذب والتضليل، وانظر إلى أمثال هؤلاء المدينين في دنيا الناس تجد واقعهم وحالهم كما أخبر المعصوم (ﷺ) ظاهرًا .

ومبالغة في تلك المعاني يُقطِّر النبي (ﷺ) بيانه ويكتنزه، ويصفي كلامه ويوجزه، وذلك عن طريق حذف المفعول في الفعل (حدَّث) وحذف متعلق الفعل الثاني (فكذب)، والتقدير: إذا غرم حدث الدائن فكذب في حديثه، وكأن حديثه كله كذب مع الدائن وغيره، يخادع الدائن عند بداية الدين، ويقول له سيأتيني مال وفير فأقرضني لمدة كذا، أو بعني تلك السلعة وأوفيك حقها يوم كذا، فيكذب ولا يفي، ثم يعده ثانية ولا يفي، ويذهب إلى غيره فيوقعه في شباك خداعه، ولا يفي له ولا لغيره، وهكذا حاله يكذب ثم يكذب حتى يكتب عند الله كذابا، ولا حول ولا قوة إلا بالله .

ويمتد ضرره وأذاه، وتكثر ذنوبه وآثامه، وتتنامى لغة التحذير والتنفير، فيعطف النبي (ﷺ) على الجملة السابقة جملة (ووعد فأخلف) وذلك للتوسط بين الكمالين، مع ما بينهما من تناسب في المعنى، وصياغة الماضوية واتحاد في المسند إليه، وفي هذا العطف تبشيع لضرر هذا الدين، وتكثيف لما يترتب عليه من ذنوب وآثام، وهذا العطف بين الجملتين من عطف الخاص على العام ؛ وذلك لأن " الوعد نوع من التحذير، لكن خُصَّ التحديث بالماضي والوعد بالمستقبل " [1]، وهذا يعني أن ماضي هذا المدين ومستقبله محمل بالآثام والمعاصي والذنوب بسبب الديون التي ركبته .

كما كان لهذا العطف أيضًا دوره الكاشف عن جمع هذا الرجل بين هاتين الخصلتين الذميمتين في آن واحد، فهو ليس كذابًا في الحديث فحسب، بل يضاف إلى ذلك خصلة ذميمة أخرى، وهي خُلفُ الوعد أيضًا .

---

(١) اللامع الصبيح بشرح الجامع الصحيح، شمس الدين البِرْماوي، أبو عبد الله محمد بن عبد الدائم بن موسى النعيمي العسقلاني المصري الشافعي: ٣٨٢/٧، تحقيق ودراسة: لجنة مختصة من المحققين بإشراف نور الدين طالب، الناشر: دار النوادر، سوريا، الطبعة: الأولى، ١٤٣٣ هـ - ٢٠١٢ م.

وقد أنبأ التعبير بالفاء في الفعلين المتعاطفين (فكذب) و(فأخلف) عن سهولة تأتِّي ذلك منه، وأنه لا يتريث في حديث أو وعد، غير مبال بما يُشين خلقه، ويسيء إلى سُمعته.

وهاتان الجملتان: كناية عن تخلق هذا الرجل بشعبتين من شعب النفاق، وفي ذكر هاتين الصفتين تبشيع لحاله، وإظهار لآثامه، ونشر لمساوئه، وفاسد سلوكه وأخلاقه، ولو قال النبي (ﷺ): إن الرجل إذا غرم تخلق بشيء من النفاق، لما أبان عن ذلك، وذلك لأن بيانه (ﷺ) يعطي الدليل والبرهان على نفاق هذا الرجل، و في هذا النظم من التشهير والذم له ما فيه، ولولا هذا الغرم اللعين ما اتصف المدين بهاتين الرذيلتين من صفات المنافقين .

وقد استدل ابن بطال بهذا الحديث بأن: "فيه وجوب قطع الذرائع؛ لأنه – عليه السلام– إنما استعاذ من الدين؛ لأنه ذريعة إلى الكذب، والخلف في الوعد مع ما يقع المِدْيان تحته من الذلة، وما لصاحب الدين عليه من المقال"(١).

وإذا كان النبي (ﷺ) في الحديث السابق ذكر صفتين من صفات المنافقين مع أن صفاتهم ثلاث، كما جاء في الحديث الذي رواه أبو هريرة (رضي الله عنه) أن رسول الله (ﷺ) قال: ((آيةُ المنافِق ثَلاَثٌ إذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإذا وَعَدَ أخْلَفَ، وَإذا ائْتُمنَ خانَ))(٢).

فلعل السر في أنه (ﷺ) لم يذكر تلك الصفة الثالثة (وإذا ائتمن خان) أن الغارم لا يؤتمن لكثرة ديونه، فهو مظنة التعدي على حقوق الناس وليس الائتمان عليها، ومن ثم لم يذكرها النبي (ﷺ) بداهة في الحديث السابق– محل الدراسة – مع الصفتين المذكورتين، لعدم مناسبة ذلك للحال والمقام.

ولا يراد بالنفاق في الحديث المذكور نفاق العقيدة، بل النفاق العملي، والمعنى: " أن هذه الخصال خصال نفاق، وصاحبها شبيه بالمنافقين في هذه

(١) شرح صحيح البخاري لابن بطال (٦/ ٥٢٠) تحقيق: أبو تميم ياسر بن إبراهيم، دار النشر: مكتبة الرشد – السعودية، الرياض، الطبعة: الثانية، ١٤٢٣هـ – ٢٠٠٣م.
(٢) صحيح مسلم، كتاب: الإيمان، باب: بيان خصال المنافق، رقم: (٥٩).

الخصال ومتخلق بأخلاقهم، فإن النفاق إظهار ما يبطن خلافه، وهذا المعنى موجود في صاحب هذه الخصال، ويكون نفاقه في حق من حدثه ووعده وائتمنه، لا أنه منافق في الإسلام فيظهره وهو يبطن الكفر"[١].

وهذا يتناغم مع تعليله (ﷺ) لسائله عن كثرة تعوذه من المغرم؛ لأن المغرم يفضي بصاحبه إلى أن يظهر خلاف ما يبطن في حديثه ووعده، وهذا يقوده إلى أقبح الأخلاق وأشدها إثما وضررا عليه وعلى المجتمع من حوله.

والذي نلحظه أنه (ﷺ) في حديث أبي هريرة السابق ذكر كلَّ صفة من صفات المنافق في ثوب أسلوب الشرط المشتمل على جميع عناصره (إذا حدث كذب) ثم جاءت الصفة الثانية، وكذا الثالثة على نسق الأولى، مع عطفهما بالواو، بينما في الحديث محل الدراسة جعل صفتين من هذه الصفات جوابا للشرط في (إذا عزم)، وقد جاء كل نظم مناسبا لمقامه، فالحديث الأول يعدد فيه النبي (ﷺ) الصفات الكاشفة عن هذا الصنف من الناس، مع انفراد كل صفة على حدة، وهذا يعني أن الإنسان يتصف بالنفاق متى تخلق بواحدة منها دون القصد إلى اجتماعها كلها فيه، أما الحديث – محل الدراسة – فالمدين يجمع بين وصفين من هذه الصفات، فهو يحدث فيكذب، ويعد فيخلف، مما يدل على أن مصيبته أعظم، وجرمه أكبر، وشعب نفاقه أعم وأكثر، وهذا يشعر بمزيد من التحذير من الدين؛ لما يترتب عليه من فاسد السلوك، وقبيح المعاملة، والإنسان كلما كانت معاملته قائمة على الصدق والوفاء كان إلى الإيمان ألصق، وإلى الجنة أقرب؛ لأن الأمر كما قيل: ((الدين المعاملة))[٢].

---

(١) الإيمان بين السلف والمتكلمين، أحمد بن عطية بن علي الغامدي : ٦٤/١، مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية، الطبعة: الأولى، ١٤٣٢هـ/٢٠٠٢م

(٢) هذه العبارة (الدين المعاملة) متداولة عند بعض الناس على أنها من أحاديثه (ﷺ)، ولكن ذكر الشيخ الألباني أنها لا أصل لها في السنة النبوية، ينظر: سلسلة الأحاديث=

وإذا كان الدين يقود صاحبه إلى التخلق بصفتين من صفات المنافقين، فنجد المعصوم (ﷺ) يستعيذ منه، ويجمع في استعاذته بينه وبين الكفر في حديث آخر، فعن أبي سعيد الخدري قال: ((سمعت رسول الله (ﷺ) يقول: أعوذ بالله من الكفر والدين، قال رجل: يا رسول الله : أتعدل الدين بالكفر؟ فقال رسول الله (ﷺ) نعم))[1].

وتلك الاستعاذة فيها ترق، وتصعيد في التنفير والتحذير من الدين، فالدين لا يقود – هنا – إلى النفاق فحسب، بل يعدل الكفر، أي يساويه، بدليل إجابته (ﷺ) الصريحة على سؤال هذا الرجل المفعم بالتعجب، والدهشة، والاستغراب من قرنه (ﷺ) بين الكفر والدين في تعوُّذٍ واحد، وذلك في قوله: (أيعدل الدين بالكفر؟ قال: نعم)، ولا يراد بالكفر – هنا – كفر العقيدة؛ إذ لا يعقل صدور ذلك منه (ﷺ) حتى يستعيذ منه، بل يراد به كفران النعمة وجحودها، ووجه التناسب بينه وبين الدَّين على هذا الوجه أن الكفر جحد بحق الله على عباده في أن يشكروه ويعترفوا بواسع فضله، وعظيم نعمه ، وكفران بنعم المنعم – سبحانه – والدين قد يقود صاحبه إلى جحد وكفران فضل الدائن عليه، فلا يشكر فضله، بل يأكل حقه، ومن لم يشكر الناس لم يشكر الله (ﷻ)، ومن ثم جمع بينهما (ﷺ) في قرنٍ واحد.

وإذا أريد به كفر العقيدة فتكون استعاذته منه (ﷺ) واردة على سبيل التعليم والإرشاد لأمته، ووجه التناسب في الجمع بينهما، وفي كونه (ﷺ) يعدل الدين به، أن الكفر بالله من أعظم الجُرم في التعدي على حق الله في أن يعبد وحده، ولا يشرك به، ومن أبشع ما تنتكس به الفطرة الإنسانية، وكذلك الدَّين إذا لم يؤدَّ لصاحبه من أعظم ما يُعتدَي به على حقوق العباد، وأبشع ما تنتكس

=الضعيفة والموضوعة للشيخ / الألباني: ٥ /١١، دار النشر: دار المعارف – الرياض – المملكة العربية السعودية، ط الأولى – ١٤٢٤ هـ – ١٩٩٢م.

(١) مسند أحمد : مُسْنَدُ الْمُكْثِرِينَ مِنَ الصَّحَابَةِ، مُسْنَدُ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ ﷺ، رقم : ١١٣٣٣، (١٧/ ٤٣٣).

بـه الأخـلاق الإنسـانية والمعـاملات البشـرية ؛ لأن مقصـد الـدائن كـان التنفيس على المدين، وتفريج كربته، والوقوفَ معه في أزمته ومحنته، ولكن وقع عليه الضررُ من حيث لا يتوقع الأذى، وكان ينبغي على المدين أن يقابل إحسانه بالشكر والثناء، والاعتراف بالفضل والجميل والعرفان لا بأكل دينه، ونهب ثمرة جده وكده.

ومن وجوه التناسب بينهما – أيضًا – " أن في جمعهما معًا في استعاذة واحدة إشارة إلى وجود نوع من الترابط والتلازم – وإن كان تلازما عاديا – بينهما فيما بين عامة الناس الذين لم يتزودوا بزاد التقوى؛ إذ الديون في الغالب دليل على الفقر، وهو إن وُجد في الإنسان قد يؤدي به إلى الزلات، إن لم يكن رُبِّي على الإيمان والقناعة والرضا"[1].

❁❁❁❁❁

(١) مجلة مجمع الفقه الإسلامي التابع لمنظمة المؤتمر الإسلامي بجدة – المكتبة الشاملة.

الخاتمة

أحمد الله تبارك وتعالى، وأصلي وأسلم على خاتم أنبيائه ورسله نبينا محمد، وعلى آله وصحبه، ومن دعا بدعوته، واستنَّ بسنته، وجاهد جهاده إلى يوم الدين.

وبعـــــــد ،،،

فبعد هذه المعايشة الماتعة في رحاب حديثه (ﷺ) عن الدين، يمكن إيجاز أهم النتائج التي أسفرت عنها تلك الدراسة المتواضعة فيما يأتي:

١- كان لكل حديث طابع بلاغي خاص يميزه، وقد جاء متناغما مع سياقه ومقامه غاية التناغم .

٢- أكد البحث ما انتهى إليه د/ سعيد أحمد جمعه في دراسته لآية المداينة في القرآن الكريم، من أن الآية وأحاديث الدين " وجهان لعملة واحدة، فالآية تخبئ تحذيراتها خلف القيود التي وضعتها في كل خطوة من خطواتها – عند الكتابة، وتحذير الأجل، واشترط كاتب عادل، واثنين من الشهود، لهم مواصفات خاصة، وتحذير الشهود من رفض الشهادة وغير ذلك كثير ... وقد جاءت الأحاديث لتصرح بمكنون الآية، وتقول للناس : احذروا الديون، فهي هم وذل وحجز عن الجنة، وضياع للحسنات، وباب إلى الربا والكذب، وطريق إلى الخوف .. وغير ذلك"(١).

٣- اتضح من خلال البحث أن جملته (ﷺ): (سبحان الله، ماذا نُزِّل من التشديد؟) لم تكن قطب ورحى المعنى في الحديث الذي وردت فيه فحسب، بل كانت هي المحور العام لمضامين أحاديثه (ﷺ) في الدين، وكانت كالقاطرة لما جاء من بيانه (ﷺ) في أحاديث هذا الباب، حيث سرى بها جميعها سمت التشديد والترهيب من الدين وعواقبه ومآلاته.

(١) البلاغة العالية في آية المداينة، د / سعيد جمعة: ١٣٩ .

٤- تبين من خلال البحث مدى دقة ووعي أئمة كتب الحديث في عنونتهم لأبواب تلك الأحاديث؛ حيث لم يخرجوا عن مضمون روح التشديد والتحذير، والتي سرت في بناء نظمها، وقد جاءت تلك العناوين في غاية الدقة والاتساق مع فحواها مثل: باب التغليظ في الدين، ومثل: باب الاستعاذة من المغرم، ومثل: باب الحبس في الدين والملازمة، ومثل باب: من قتل في سبيل الله كفرت خطاياه إلا الدين.

٥- كما اتضح من خلال البحث أن التشديد في الدين، والتحذير منه ليس من تلقاء النبي (ﷺ) بل هو من الوحي النازل من السماء، وقد دعمَّ هذا المعنى ما جاء في بيانه (ﷺ) صراحة في مثل قوله: (سبحان الله، ماذا نزل من التشديد ؟) وقوله: (كذلك قال لي جبريل)، أوْ ما فُهم من بيانه ضمنا في مثل قوله: (الآن بردت عليه جلده)، وقوله: (فذلك الذي يؤخذ من حسناته)، إذ كيف يعلم النبي (ﷺ) بذلك دون أن يكون قد أوحى إليه.

٦- ارتبطت أغلب مقامات تلك الأحاديث بالموت وما يتبعه، فهذا شهيد حجب عن الجنة بسبب دينه، وهذا آخر تُكفر خطاياه كلها إلا الدين، وهذا ميت يمتنع النبي (ﷺ) من الصلاة عليه بسبب دينارين عليه، ولا يصلي عليه حتى يستوثق من أحد الصحابة بتحمله لهما، وهذا مدين باغتته المنية قبل أن يسدد دينه، فيكون الحكم والجزاء عليه بحسب نيته في السداد وعدمها، وارتباط تلك الأحاديث بالموت مما يضفي عليها طابع التحذير والتخويف.

٧- أكد البحث أن الديون لابد أن تقضي، إما أن يقضيها المدين في الدنيا، أو ورثته بعد مماته، أو أي ضامن آخر، فإذا لم تقض في الدنيا كان قضاؤها في الآخرة بالحسنات والسيئات، وليس بالدينار والدرهم، أو بإرضاء الله – عز وجل – للغريم بما شاء، وذلك للمدين الذي كان صادق النية في السداد، وإنما كان الأمر كذلك؛ لأن الدين مرتبط بحقوق العباد، وهي مبنية على المشاحة، والمضايقة، والمطالبة في الآخرة، بخلاف حقوق الله – ﷻ– فهي قائمة على العفو والمسامحة، وهذا مما يدل على خطورة

الدين وعظيم تبعاته، كما يدل على حرص الإسلام على أن تظل عملية الديون استثناء، وليست أصلا في التعامل، وذلك من أجل سعادة وراحة وأمن وسكينة المسلمين في الدنيا والآخرة .

٨- اتسمت بعض جمله وتراكيبه (ﷺ) باللهجة الحاسمة، واللغة الصارمة والقاطعة، والتي تناغمت مع مقصده (ﷺ) في التحذير من الدين، وذلك مثل: "ما دخل الجنة حتى يقضى عنه دينه"، ومثل قوله: "فذلك الذي يؤخذ من حسناته"، ومثل قوله: "ومن أخذها يريد إتلافها أتلفه الله "، وكلها تقطر بالتهديد والترهيب والوعيد.

٩- تبيَّن من خلال التحليل ندرة الصورة البيانية في تلك الأحاديث، و ما جاء من تلك الصور – على ندرتها – جاء في غاية التناغم مع رغبته (ﷺ) في تضييق حركة التعامل بالدين بين الناس، ومن تلك الصور، ما جاء من التشبيه في قوله (ﷺ): "كذلك قال لي جبريل"، وقد أكد هذا التشبيه أن التحذير ليس من عند النبي(ﷺ)، بل هو أمر مُوحى إليه، وهذا مما يزيد من خطورة الدين ومآلاته .

ومن صور المجاز المرسل ما جاء في لفظ (التشديد)، ولفظ (المأثم) وكانت العلاقة فيهما واحدة وهي (المسببية)، ومن الصور الكنائية ما جاء في قوله (ﷺ): (ليس يومئذ دينار ولا درهم)، وقوله (ﷺ): (لا تموتن وعليك دين)، وقد جاء التعبير بهما في سياقهما في غاية التحذير من الدين، والزجر والوعيد في شأنه، بينما لم أقف على صورة استعارية واحدة ؛ إذ لا مجال في مقام التحذير للمبالغة والخيال التي تتطلبه الاستعارة.

١٠- حفلت تلك الأحاديث بصور الإنشاء بنوعيه، وقد جاءت جميعها متناغمة مع السياق، ومدعمة لما يرمي إليه (ﷺ) في بيانه من التحذير من الدين، وتضييق التعامل به، فمن صور الإنشاء غير الطلبي :أسلوب القسم في قوله (ﷺ): (والذي نفسي بيده) ومنها أسلوب التعجب في قوله (ﷺ): (سبحان الله) ومن صور الإنشاء الطلبي الاستفهام في قوله (ﷺ):

(ماذا نزل من التشديد)، وقوله (ﷺ): (هما عليك حق الغريم)، ومنها قوله (ﷺ): (ما فعل الديناران)، وقوله (ﷺ): (كيف قلت؟).

١١- ولم تأت إلا صورة أمر واحدة، وذلك في قوله (ﷺ): (صلوا على صاحبكم) وهي مع حقيقتها البلاغية يُشتم منها رائحة الرفض والغضب منه (ﷺ)، كما جاءت صورة واحدة للنداء، وذلك في مقام تعوذه (ﷺ) من المغرم، وذلك في قوله (ﷺ): (اللهم إني أعوذ بك من المأثم والمغرم).

١٢- رجَّح البحث أن الاستثناء الواقع في قوله (ﷺ): (إلا الدين) الأولى أن يحمل على الاتصال، وذلك بإدخال (الدين) بواسطة أداة الاستثناء في دائرة الخطايا والذنوب، مما يلقى بظلال التحذير والتنفير من الدين، والتضييق على المستدين، وتقليل دائرة التعامل به في الحياة.

١٣- جاء بيانه (ﷺ)- أحيانًا – معبرا بفصل بعض الجمل، وبنائها إما على القطع والاستئناف، قصدا إلى إشباع جزء من المعنى، لما له من مزيد عناية بالغرض المسوق له الكلام، وذلك كما في قوله (ﷺ): (كذلك قال لي جبريل)، وقوله(ﷺ) متعوذا: (اللهم إني أعوذ بك من المأثم والمغرم)، أو عن طريق الاستئناف البياني وذلك في قوله (ﷺ): (ليس يومئذ دينار ولا درهم).

١٤- جاء التعبير بأسلوب الشرط – أحيانا – في تلك الأحاديث، وكان له دوره في إثارة المتلقي وتشويقه وتطلعه إلى معرفة الجواب، بما يفيض به من تحذير وترهيب وتخويف، وقد جاء ذلك متناغما مع ما يهدف إليه البيان النبوي من التأكيد على خطورة الدين، وتثبيت هذا المعنى في وعي كل مسلم، وفي العقل والضمير الجمعي للأمة كلها.

١٥- وأخيرا أسجل قصوري وعجزي عن إدراك واستكناه أسرار بيانه (ﷺ)، وهذا ما امتن الله به على ووفقني إليه، و"هل يدرك المرء من آثار الشمس غير

الضوء والحرارة؟ وهل يعلم من أسرار الروض غير العطر والنضارة؟ وهل يجد في نفسه من أغوار البحر غير الشعور بالجلالة والروعة؟ "[1].

أسأل الله – ﷻ– أن يبعد عنا وعن الأمة كلها شر الديون وهمومها، وعواقبها وآثامها، وأن يفيض علينا بالأمن والسكينة، والقناعة والراحة والسعادة.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

❁❁❁❁❁

(١) وحي الرسالة، الأستاذ / أحمد حسن الزيات، جـ٣ صـ١٠٥ دار الثقافة. بيروت، ط السادسة، ١٣٩٣هـ / ١٩٧٣م.

المصادر والمراجع

١- إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل، محمد ناصر الدين الألباني، إشراف: زهير الشاويش، المكتب الإسلامي – بيروت، الطبعة: الثانية ١٤٠٥ هـ – ١٩٨٥م .
٢- الأساليب الإنشائية غير الطلبية في القرآن الكريم، د/سعيد إسماعيل الهلالي، رسالة دكتوراه، مخطوطة في كلية اللغة العربية بالمنصورة .
٣- الأساليب الإنشائية في النحو العربي، أ / عبد السلام هارون ، مكتبة الخانجي – القاهرة – ط الخامسة – ١٤٢١ هـ – ٢٠٠١ م .
٤- الأساليب الإنشائية وأسرارها البلاغية في القرآن الكريم، د / صباح دراز، مطبعة الأمانة – الطبعة الأولى – ١٤٠٦ هـ – ١٩٨٦ م .
٥- استثمار الأسلوب العدولي في تذوق النص القرآني، د / عبيد محمد شبايك، مجلة كلية الآداب، جامعة المنوفية، العدد الثامن، يناير ٢٠٠٤م.
٦- الاستفهام في الصحيحين – خصائصه التركيبية ومعانيه البلاغية، عبد العزيز العمار، منشورات جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ١٤٣٠ هـ – ٢٠٠٩ م .
٧- أسرار البلاغة : لعبد القاهر الجرجاني، ت : محمود محمد شاكر، مطبعة المدني، القاهرة – ط أولى – ١٤١٢هـ – ١٩٩١م.
٨- أسرار الفصل والوصل في البلاغة القرآنية، د / صباح دراز، مطبعة الأمانة، الطبعة الأولى – ١٤٠٦هـ– ١٩٨٦م.
٩- الأسلوب، أ/أحمد الشايب، مكتبة النهضة المصرية – ط :٧، ١٣٩٦ هـ – ١٩٧٦ م.
١٠-إعجاز القرآن والبلاغة النبوية: مصطفى صادق الرافعي،ط دار الكتاب العربي، بيروت – لبنان – الطبعة الثامنة – ١٤٢٥هـ – ٢٠٠٥م.

١١-الأعلام للزركلي- دار العلم للملايين، الطبعة: الخامسة عشر - أيار / مايو ٢٠٠٢ م .
١٢-أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك لابن هشام الأنصاري، دار الجيل - بيروت - لبنان - ط - ١٣٩٩هـ- ١٩٧٩م.
١٣-الإيمان بين السلف والمتكلمين، أحمد بن عطية بن علي الغامدي، مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية، الطبعة: الأولى، ١٤٣٢هـ/٢٠٠٢م
١٤-بدائع الفوائد لابن القيم الجوزية ، تحقيق : هشام عطا وآخرون، مكتبة نزار مصطفى الباز، مكة المكرمة، ط الأولى - ١٤١٦هـ- ١٩٩٦ م.
١٥-البدرُ التمام شرح بلوغ المرام، الحسين بن محمد بن سعيد اللاعيّ، المعروف بالمَغرِبي، تحقيق: علي بن عبد الله الزبن، الناشر: دار هجر، الطبعة: الأولى، ١٤٢٨ هـ - ٢٠٠٧ م.
١٦-البرهان في تجويد القرآن محمد الصادق قمحاوي، عالم الكتب، بيروت ١٤١٤ هـ - ١٩٩٤ م
١٧-البرهان في علوم القرآن للزركشي، تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم - دار إحياء الكتب العربية عيسى البابى الحلبي وشركاه، الطبعة: الأولى، ١٣٧٦ هـ - ١٩٥٧ م .
١٨-بغية الإيضاح للشيخ/ عبد المتعال الصعيدي ، المطبعة النموذجية - بدون تاريخ .
١٩-البلاغة العالية (علم المعاني)، للشيخ / عبد المتعال الصعيدي، تحقيق: عبد القادر حسين، مكتبة الآداب - الطبعة الثانية - ١٤١١ هـ - ١٩١١ م.
٢٠-البلاغة العربية أسسها وعلومها وفنونها، وصور من تطبيقاتها، بهيكل جديد من طريف وتليد، تأليف: عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني، ط ١ (دمشق - دار القلم - ١٤١٦هـ- ١٩٩٦م).

٢١-البلاغة القرآنية في التصوير بالإشارة والحركة الجسمية، د / عبد الله محمد سليمان هنداوي، مطبعة الأمانة، الطبعة الأولى، ١٤١٦ هـ - ١٩٩٥م.
٢٢-بناء الجملة في الحديث النبوي الشريف في الصحيحين، د / عودة خليل عودة، دار البشير - الأردن - ط الثانية - ١٤١٤هـ - ١٩٩٤م.
٢٣-البيان عند الشهاب الخفاجي في كتابه: (عناية القاضي وكفاية الراضي)، القسم الأول، د/ فريد محمد بدوي النكلاوي، ط: مطبعة الأمانة، ١٤٠١هـ - ١٩٩٨م.
٢٤-التشويق في الحديث النبوي، طرقه وأغراضه، د / بسيوني عبد الفتاح فيود، ط الحسين الإسلامية، الطبعة الأولى، ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م.
٢٥-تصريف الأسماء، محمد الطنطاوي، مطبعة وادي الملوك - مصر، الطبعة الخامسة، ١٩٥٥م.
٢٦-التصوير الفني في القرآن لسيد قطب، دار الشروق - الطبعة الشرعية - ط الثانية عشرة - ١٤٢٣ هـ - ٢٠٠٢ م.
٢٧-تفسير الزمخشري = الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، الناشر: دار الكتاب العربي - بيروت، الطبعة: الثالثة - ١٤٠٧ هـ.
٢٨-تفسير الشعراوي، للشيخ محمد متولي الشعراوي، مطابع أخبار اليوم، ١٩٩٧ م.
٢٩-الجني الداني في تذوق المعاني، د/ عبد الحليم محمد شادي ، مطبعة الأمانة، الطبعة الأولى - ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧م.
٣٠-الجني الداني في حروف المعاني، أبو محمد بدر الدين حسن بن قاسم بن عبد الله بن عليّ المرادي المصري المالكي، تحقيق: د .فخر الدين قباوة -الأستاذ/ محمد نديم فاضل، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤١٣ هـ - ١٩٩٢ م.

٣١-حاشية الصبان على شروح الأشموني لألفية لابن مالك ، ت / طه عبد الرءوف سعد، المكتبة التوفيقية – بدون.
٣٢-الحاوي الكبير في فقه مذهب الإمام الشافعي وهو شرح مختصر المزني، للماوردي، تحقيق: الشيخ / علي محمد معوض – والشيخ عادل أحمد عبد الموجود، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤١٩ هـ -١٩٩٩ م.
٣٣-الحديث النبوي الشريف من الوجهة البلاغية، د / كمال عز الدين، دار اقرأ، ط : الأولى، ١٤٠٤ هـ - ١٩٨٤ م .
٣٤-الحذف البلاغي في القرآن الكريم، مصطفى عبد السلام أبو شادي، مكتبة القرآن – بدون .
٣٥-خصائص التراكيب، دراسة تحليلية لمسائل علم المعاني، د / محمد أبو موسى ، مكتبة وهبة، ط السادسة، ١٤٢٥ هـ - ٢٠٠٤ م .
٣٦-دراسات منهجية في علم البديع، د / الشحات محمد أبو ستيت، طبعة أولى - ١٤١٤ هـ - ١٩٩٤ م.
٣٧- دراسة الصوت اللغوي، د/أحمد مختار عمر، عالم الكتب، الطبعة الثالثة، القاهرة ١٩٨٥م.
٣٨-دلائل الإعجاز، للإمام عبد القاهر الجرجاني ، قرأه وعلق عليه : محمود محمد شاكر، الهيئة المصرية العامة للكتاب ٢٠٠٠ م .
٣٩-دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، محمد علي بن محمد بن علان بن إبراهيم البكري الصديقي الشافعي، اعتنى بها: خليل مأمون شيحا، الناشر: دار المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت – لبنان، الطبعة: الرابعة، ١٤٢٥ هـ - ٢٠٠٤ م.
٤٠-ذم الفرقة والاختلاف في الكتاب والسنة، عبد الله بن محمد الغنيمان، الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، الطبعة: السنة السابعة عشرة (العدد

الخامس والستون، والسادس والستون) محرم – جمادى الآخرة ١٤٠٥هـ-١٩٨٥م.
٤١-روح المعاني في تفسير القرآن العظيم للعلامة أبي الفضل شهاب الدين السيد محمود الآلوسي، دار الفكر – بيروت – ١٤٠٢ هـ – ١٩٨٣ م .
٤٢-الزواجر عن اقتراف الكبائر، أحمد بن محمد بن علي بن حجر الهيتمي السعدي الأنصاري، شهاب الدين شيخ الإسلام، أبو العباس، دار الفكر، الطبعة: الأولى، ١٤٠٧هـ – ١٩٨٧م.
٤٣-سبل السلام، للصنعاني، الناشر: دار الحديث، بدون طبعة وبدون تاريخ.
٤٤-السراج الوهاج في كشف مطالب مسلم بن الحجاج شرح مختصر صحيح مسلم للحافظ المنذري، تحقيق : عبد الله بن إبراهيم الأنصاري، طبع هذا الكتاب على نفقة الشئون الدينية بدولة قطر- بدون.
٤٥-سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة للشيخ / الألباني، دار النشر: دار المعارف – الرياض – المملكة العربية السعودية، ط أولى – ١٤٢٤ هـ – ١٩٩٢م.
٤٦-سنن ابن ماجه، تحقيق: شعيب الأرناؤوط – وآخرون، دار الرسالة العالمية، الطبعة: الأولى، ١٤٣٠هـ – ٢٠٠٩م.
٤٧-سنن أبي داود، تحقيق: شعَيب الأرناؤوط – محَمَّد كامِل قره بللي، الناشر: دار الرسالة العالمية، الطبعة: الأولى، ١٤٣٠هـ – ٢٠٠٩ م.
٤٨-سنن الترمذي ، تحقيق وتعليق / إبراهيم عطوة، طبع مكتبة ومطبعة مصطفى البابا الحلبي بمصر، ط الثانية، ١٣٩٥هـ – ١٩٧٥م.
٤٩-السنن الصغرى للبيهقي، تحقيق: عبد المعطي أمين قلعجي، دار النشر: جامعة الدراسات الإسلامية، كراتشي . باكستان، الطبعة: الأولى، ١٤١٠هـ – ١٩٨٩م.

٥٠-السنن الكبرى للبيهقي، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، الطبعة: الثالثة، ١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٣ م
٥١-سنن النسائي، تحقيق: عبد الفتاح أبو غدة، مكتب المطبوعات الإسلامية – حلب، الطبعة: الثانية، ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ م، قال الشيخ الألباني: حسن.
٥٢-شرح المفصل لابن يعيش ، إدارة الطباعة المنيرية – مصر – بدون .
٥٣-شرح أحاديث من صحيح البخاري – دراسة في سمت الكلام الأول، د/ محمد محمد أبو موسى، مكتبة وهبة، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ - ٢٠٠١م.
٥٤-شرح أصول اعتقاد أهل السنة للالكائي، تحقيق: أحمد بن سعد بن حمدان الغامدي، دار طيبة – السعودية، الطبعة: الثامنة، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٣م.
٥٥-شرح التسهيل لابن مالك، تحقيق: د. عبد الرحمن السيد، د. محمد بدوي المختون، هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان، الطبعة: الأولى (١٤١٠هـ - ١٩٩٠م).
٥٦-شرح التصريح على التوضيح للشيخ خالد الأزهري وبهامشه حاشية العلامة يس، طبعة عيسى البابا الحلبي
٥٧-شرح الزرقاني على موطأ الإمام مالك، محمد بن عبد الباقي بن يوسف الزرقاني المصري الأزهري، تحقيق: طه عبد الرءوف سعد، الناشر: مكتبة الثقافة الدينية – القاهرة، الطبعة: الأولى، ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م.
٥٨-شرح العقيدة الطحاوية لابن جبرين، ضمن كتب العقيدة بالمكتبة الشاملة، دروس صوتية قام بتفرغيها موقع الشبكة الإسلامية: http://www.islamweb.net
٥٩-شرح النووي على مسلم، ط دار إحياء التراث العربي– بيروت – الطبعة الثانية – ١٣٩٢ م.

٦٠-شرح رياض الصالحين، محمد بن صالح بن محمد العثيمين – الناشر: دار الوطن للنشر – الرياض – ط ١٤٢٦هـ.
٦١-شرح سنن أبي داود، شهاب الدين أبو العباس أحمد بن حسين بن علي بن رسلان المقدسي الرملي الشافعي، تحقيق: عدد من الباحثين بدار الفلاح بإشراف خالد الرباط، دار الفلاح للبحث العلمي وتحقيق التراث، الفيوم – جمهورية مصر العربية، الطبعة: الأولى، ١٤٣٧ هـ- ٢٠١٦م.
٦٢-شرح صحيح البخارى لابن بطال، تحقيق: أبو تميم ياسر بن إبراهيم، دار النشر: مكتبة الرشد – السعودية، الرياض، الطبعة: الثانية، ١٤٢٣هـ – ٢٠٠٣م.
٦٣-شروح التلخيص (مختصر العلامة سعد الدين التفتازاني على تلخيص المفتاح للخطيب القزويني – دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان.
٦٤-صحيح ابن حبان، حققه وخرج أحاديثه وعلق عليه: شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة – بيروت – الطبعة الأولى – ١٤٠٨هـ – ١٩٨٨م.
٦٥-صحيح البخاري، تحقيق : محمد زهير بن ناصر الناصر، الناشر: دار طوق النجاة (مصورة عن السلطانية بإضافة ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي)، الطبعة: الأولى، ١٤٢٢هـ.
٦٦-الطبقات الكبرى، أبو عبد الله محمد بن سعد بن منيع الهاشمي بالولاء، البصري، البغدادي المعروف بابن سعد، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٠هـ – ١٩٩٠م.
٦٧-طرح التثريب في شرح التقريب (المقصود بالتقريب: تقريب الأسانيد وترتيب المسانيد)، أبو الفضل زين الدين عبد الرحيم بن الحسين بن عبد الرحمن بن أبي بكر بن إبراهيم العراقي، الناشر: الطبعة المصرية القديمة، بدون.
٦٨-الطريق من هنا، للشيخ / محمد الغزالي، ط دار الشروق – بدون .

٦٩- علم المعاني، د/ صباح دراز، مطبعة التركي – طنطا – ١٤١٧ هـ – ١٩٩٧م.
٧٠- عمدة القاري شرح صحيح البخاري للعيني – دار إحياء التراث العربي – بيروت .
٧١- العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده لابن رشيق القيرواني، تحقيق: أ/ محمد محيي الدين عبد الحميد – دار الطلائع – القاهرة – ٢٠٠٦ م .
٧٢- عناصر البلاغة الأدبية، د/ نبيل راغب، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ٢٠٠٣ م.
٧٣- عناية القاضي وكفاية الراضي على تفسير البيضاوي للشهاب الخفاجي، دار صادر – بيروت.
٧٤- فتح الباري شرح صحيح البخاري لابن حجر العسقلاني، رقم كتبه وأبوابه وأحاديثه: محمد فؤاد عبد الباقي، قام بإخراجه وصححه وأشرف على طبعه: محب الدين الخطيب، عليه تعليقات العلامة: عبد العزيز بن عبد الله بن باز، الناشر: دار المعرفة – بيروت، ١٣٧٩هـ.
٧٥- الفتح الرباني لترتيب مسند الإمام أحمد بن حنبل الشيباني ومعه بلوغ الأماني من أسرار الفتح الرباني، لأحمد عبد الرحمن البنا الساعاتي، الطبعة: الثانية، دار إحياء التراث الإسلامي، بيروت – لبنان.
٧٦- فتح المنعم شرح صحيح مسلم، د / موسى شاهين لاشين، دار الشروق، الطبعة الأولى، ١٤٢٣ هـ – ٢٠٠٢ م.
٧٧- الفتوحات الربانية على الأذكار النووية لابن علان، دار إحياء التراث العربي – بيروت – المكتبة الإسلامية. بدون.
٧٨- الفروق اللغوية لأبي هلال العسكري، منشورات: محمد على بيضون – دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان – الطبعة الأولى – ١٤٢١ هـ – ٢٠٠٠ م.

٧٩-فقه السنة، للسيد سابق ، دار الكتاب العربي – بيروت – لبنان – ط٣ – ١٣٩٧ هـ – ١٩٧٧ م.
٨٠-فقه بيان النبوة منهجًا وحركة، د / محمود توفيق سعد، مطبعة الأمانة – ط الأولى، ١٤١٣ هـ – ١٩٩٢ م .
٨١-قطوف من البلاغة العربية، د / عبد الحليم محمد شادي، كلية اللغة العربية بإيتاي البارود، ١٤٢٧ هـ – ٢٠٠٧ م .
٨٢-قوت المغتذى على جامع الترمذي جلال الدين السيوطي ، إعداد د/ ناصر بن محمد الغريبي، رسالة دكتوراه – جامعة أم القرى – مكة المكرمة – كلية الدعوة – أصول الدين، قسم الكتاب والسنة، ١٤٢٤ هـ .
٨٣-الكافي في علوم البلاغة (المعاني والبيان والبديع)، د / عيسى على العاكوب، أ / على سعد الشيتوي ، دار الكتب الوطنية ببنغازي، ط ١، ١٩٩٣ م .
٨٤-الكوثر الجاري إلى رياض أحاديث البخاري، أحمد بن إسماعيل بن عثمان بن محمد الكوراني الشافعي، تحقيق: الشيخ أحمد عزو عناية، الناشر: دار إحياء التراث العربي، بيروت – لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤٢٩ هـ – ٢٠٠٨ م
٨٥-الكوكب الوهاج والروض البهاج في شرح صحيح مسلم بن الحجاج، جمع وتأليف: محمد الأمين بن عبد الله الأرمي العلوي الهرري الشافعي، مراجعة لجنة من العلماء برئاسة البروفسور/ هاشم محمد على مهدي، دار المنهاج و دار طوق النجاة – لبنان – بيروت – الطبعة الأولى – ١٤٣٠ هـ – ٢٠٠٩م.
٨٦-اللامع الصبيح بشرح الجامع الصحيح، شمس الدين البِرْماوي، أبو عبد الله محمد بن عبد الدائم بن موسى النعيمي العسقلاني المصري الشافعي، تحقيق ودراسة: لجنة مختصة من المحققين بإشراف نور الدين

طالب، الناشر: دار النوادر، سوريا، الطبعة: الأولى، ١٤٣٣ هـ - ٢٠١٢م.
٨٧-لسان العرب لابن منظور. دار صادر - بيروت، الطبعة: الثالثة - ١٤١٤هـ.
٨٨-المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، المؤلف: ضياء الدين بن الأثير، نصر الله بن محمد ، تحقيق: أحمد الحوفي، بدوي طبانة، الناشر: دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، الفجالة . القاهرة
٨٩-المجالس الوعظية في شرح أحاديث خير البرية (ﷺ) من صحيح الإمام البخاري، المؤلف: شمس الدين محمد بن عمر بن أحمد السفيري الشافعي، حققه وخرج أحاديثه: أحمد فتحي عبد الرحمن، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤٢٥ هـ - ٢٠٠٤ م
٩٠-مجلة مجمع الفقه الإسلامي التابع لمنظمة المؤتمر الإسلامي بجدة - المكتبة الشاملة .
٩١-مجمع الزوائد ومنبع الفوائد للهيثمي، تحقيق: حسام الدين القدسي، مكتبة القدسي، القاهرة، ١٤١٤ هـ- ١٩٩٤م.
٩٢-المجموع شرح المهذب، للإمام أبى زكريا محيى الدين يحيى بن شرف النووي - كتاب الصحابة -، ط دار الفكر- بيروت.
٩٣-مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح لعلي بن سلطان محمد، أبو الحسن نور الدين الملا الهروي القاري- دار الفكر، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٢٢ هـ - ٢٠٠٢م.
٩٤-المزهر في علوم اللغة للسيوطي، ت: فؤاد على منصور، دار الكتب العلمية، بيروت - ط الأولى - ١٤٨٣هـ- ١٩٩٨ م .
٩٥-مستتبعات التراكيب بين البلاغة القديمة والنقد الحديث، د/ عبد الغني محمد بركة- دار الطباعة المحمدية - الطبعة الأولى - ١٤٠٩هـ- ١٩٨٩م.

٩٦-مسند الإمام أحمد بن حنبل – تحقيق: شعيب الأرناؤوط – عادل مرشد، وآخرون، إشراف: د عبد الله بن عبد المحسن التركي، الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة: الأولى، ١٤٢ هـ- ٢٠٠١م.
٩٧-مسند الإمام الدارمي، أبو محمد عبد الله بن عبد الرحمن الدارمي، حققه: د/ مرزوق بن هياس آل مرزوق الزهراني، ط ١، ١٤٣٦هـ- ٢٠١٥ م.
٩٨-المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله ﷺ (صحيح مسلم)، لمسلم بن الحجاج، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، الناشر: دار إحياء التراث العربي- بيروت.
٩٩-مصابيح الجامع، محمد بن أبي بكر المخزومي القرشي بدر الدين المعروف بالدماميني، اعتنى به تحقيقًا وضبطًا وتخريجًا: نور الدين طالب، الناشر: دار النوادر، سوريا، الطبعة: الأولى، ١٤٣٠ هـ – ٢٠٠٩م.
١٠٠- المعجم الأوسط للطبراني، تحقيق: طارق بن عوض الله بن محمد الحسيني، الناشر: دار الحرمين – القاهرة.
١٠١- معجم الفروق اللغوية، أبو هلال العسكري، تحقيق: الشيخ بيت الله بيات، ومؤسسة النشر الإسلامي، التابعة لجماعة المدرسين بـ «قم»، الطبعة: الأولى،١٤١٢هـ .
١٠٢- المعجم الكبير للطبراني، تحقيق: حمدي بن عبد المجيد السلفي، دار النشر: مكتبة ابن تيمية – القاهرة، الطبعة: الثانية.
١٠٣- مغني اللبيب عن كتب الأعاريب – ابن هشام، ت : د / صلاح عبد العزيز السيد – دار السلام – ط الأولى – ١٤٢٤هـ – ٢٠٠٤م.
١٠٤- المفاتيح في شرح المصابيح، الحصين بن محمود بن الحصين، إصدار إدارة الثقافة الإسلامية، وزارة الأوقاف الكويتية، ط ١، ١٤٢٢ هـ – ٢٠١٢م.

١٠٥- المفردات في غريب القرآن، للراغب الأصفهانى، تحقيق: صفوان عدنان الداودي، دار القلم، الدار الشامية – دمشق، بيروت، الطبعة: الأولى- ١٤١٢هـ.
١٠٦- من أساليب القرآن: المجاز العقلي، د/ عبد الرازق محمد فضل ، ط ١٩٩٦م.
١٠٧- من أسرار حروف العطف في الذكر الحكيم (الفاء وثم) للدكتور / محمد الأمين الخضري، مكتبة وهبة – القاهرة – الطبعة الثانية – ١٤٢٧هـ- ٢٠٠٧ م.
١٠٨- من دقائق البيان النبوي في صيغة التلبية، أ.د / رفعت إسماعيل السوداني، بحث منشور في مجلة كلية اللغة العربية بإيتاي البارود، عدد ٢٠٠٣ م .
١٠٩- المنهل الحديث في شرح الحديث، الأستاذ الدكتور/ موسى شاهين لاشين، دار المدار الإسلامي، الطبعة: الأولى، ٢٠٠٢ م.
١١٠- المنهل العذب المورود في شرح سنن أبي داود، محمود محمد خطاب السبكي، الناشر: مطبعة الاستقامة،١٣٥١هـ.
١١١- المهذب في فقه الإمام الشافعي، لأبي إسحاق إبراهيم بن علي بن يوسف الفيروزآبادي الشيرازي، الناشر: دار الكتب العلمية.
١١٢- مواهب الفتاح في شرح تلخيص المفتاح، ضمن شروح التلخيص لابن يعقوب المغربي، دار الإرشاد الإسلامي – بيروت – بدون.
١١٣- موطأ مالك، صححه ورقمه وخرَّج أحاديثه وعلق عليه: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت – لبنان، ١٤٠٦ هـ – ١٩٨٥م.
١١٤- نيل الأوطار شرح منتقى الأخبار، محمد بن على الشوكاني، ت. أ/عصام الدين الصبابطي دار الحديث. القاهرة. ط. أولى ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م.

١١٥- همـع الهوامـع للسـيوطي، تحقيـق: عبـد المجيـد عبـد الحميـد هنـداوي، المكتبة التوفيقية – بدون تاريخ.
١١٦- الـوافي بالوفيـات، صـلاح الـدين الصـفدي، تحقيـق: أحمـد الأرنـاؤوط، وتركي مصطفى، دار إحياء التراث – بيروت، ١٤٢٠هـ- ٢٠٠٠م.
١١٧- الواو ومواقعها في النظم القرآني، د/ محمد الأمين الخضري، مخطوط بكلية اللغة العربية بالقاهرة ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣م.

فهرس الأحاديث النبوية
التي قامت عليها الدراسة

م	راوي الحديث	مطلع الحديث	رقم الصفحة
١	مُحَمَّدِ بْنِ جَحْشٍ	سُبْحَانَ اللهِ، مَاذَا نُزِّلَ مِنَ التَّشْدِيدِ	٣٧٢
٢	أَبِو قَتَادَةَ	يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَرَأَيْتَ إِنْ قُتِلْتُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ صَابِرًا مُحْتَسِبًا مُقْبِلًا غَيْرَ مُدْبِرٍ، ...	٤٠٣
٣	جابر بن عبد الله	تُوُفِّيَ رَجُلٌ فَغَسَّلْنَاهُ وَحَنَّطْنَاهُ وَكَفَّنَّاهُ	٤١٩
٤	ابن عمر	الدَّيْنُ دَيْنَانِ	٤٣٨
٥	عائشة	اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ عَذَابِ القَبْرِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ فِتْنَةِ المَسِيحِ الدَّجَّالِ،	٤٥٩

فهرس الموضوعات

م	الموضوع	رقم الصفحة
١	مقـــدمـــة	٣٦٧
٢	المقام الأول : التشديد في الدين من وحي السماء .	٣٧٢
٣	المقام الثاني : الدين لا تكفره الشهادة في سبيل الله مع عظمة ثوابها .	٤٠٣
٤	المقام الثالث : امتناعه (ﷺ) عن الصلاة على المدين حتى يضمن دينه .	٤١٩
٥	المقام الرابع : التحذير من نية عدم السداد للدين، وعاقبة ذلك .	٤٣٨
٦	المقام الخامس : تأثير الدين على العقيدة والسلوك العام.	٤٥٩
٧	الخاتمـــــة	٤٨١
٨	المصادر والمراجع	٤٨٦
٩	فهرس الأحاديث النبوية	٤٩٩
١٠	فهـــرس الموضوعات	٥٠٠